الباب الخامس

في ذكر الزيادتين اللتين زيدتا في المسجد الحرام بعد تربيعه الذي امر به المهدي بن المنصور العبّاسي وشرع فيه فادركتْه الوفاة قبل اتمامه واتمّ في ولاية الهادي بن المهدي المذكور كما سيتّ شرح ذلك فيما تقدّم،

ووقع ترميم في الجانب الغربي من المسجد الحرام قبل الزيادتين في ايام المعتمد على الله العبّاسي ثم بُنيت الزيادة الكبرى من الجانب الشمالي من المسجد الحرام في ايام المعتضد بالله ثم زيدت الزيادة الصغرى في الجانب الغربي من المسجد الحرام في ايام المقتدر بالله فنذكر تراجم هذه الخلفاء ولنذكر ما احدثوه في المسجد الحرام من تجديد وزيادة وترميم على الترتيب ان شاء الله تعالى مع ما نذكر في ضمن ذلك من الفوايد الاستطرادية ترويحًا للنفس وتسبيبًا لحصول الفوايد والانس وتوقيفًا على احوال الدهر وتعريفًا بما يَحْدُث من الحوادث في كلّ عصر لئلّا يعتمد العاقل على هذه الدنيا ويعتبر بمن قبله في غدر هذه العجوز العَيّا وهذه الفوايد في الحقيقة نتايجُ علم الاخبار ليعتبر المعتبر حال نفسه بحال غيره في هذه الدار، فان من قواعد الحكمة ان افعال الفاعل الواحد متشابهة الآثار، والله تعالى هو الفاعل المختار، والعبد العاجز غير مختار، وربّك يفعل ما يشاء ويختار، وان الدار الاخرة لهي دار القرار،

وقد وجدت محلّ القول ذا سعةٍ فان وجدتَ لسانًا قايلًا فَقُلِ

لمّا قتل متغلّبة العبيد الاتراك الخليفة المهتدي بالله صَبْرًا عمدوا الى الحبس فاخرجوا منه ابن عمّه ابا جعفر احمد بن المتوكّل على الله بسن

الرشيد العبّاسى ولقّبوه المعتمد على الله وبايعوه على الخلافة فى رجب سنة ٢٥٦ ومولده سنة ٢٢٩ وأمّه أمّ ولد رومية اسمها فتيان وكان له انهماك على اللّهو واللّذّات فقدم اخاه طلحة بن المتوكل على الله ولقّبه الموفّق بالله وجعله ولىّ عهده وولّاه الحجاز والمشرق واليمن وفارس وطبرستان وسجستان والسند، وكان له ولد صغير اسمه جعفر لقّبه المفوّض الى الله وولّاه المغرب والشام والجزيرة وعقد لهما لواءين ابيض واسود وعقد لهما البيعة وشرط على اخيه الموفق انه ان حدث له الموت وولده صغيرٌ كان الموفّق ولىّ عهده وان كان حينئذ ولده كبيرًا كان ولده ولىّ عهده وكتب بذلك معاقدة كتب كلّ منهما خطّه عليها وكتب عليها القضاة والعدول خطوطهم وارسلها الى مكة لتعلّق فى الكعبة فعُلّقت فيها وما افاد مع هذه التدابير حذر عن قدر وما وقع الا ما قدره الله تعالى، وكان الموفق عاقلاً مدبرًا شجاعًا مشتغلاً بامور المملكة ملتفتاً لاحوال الرعيّة وكان اخوه المعتمد مكبًّا على لَهْوه ولَذّاته مهمّلاً لاحوال الرعية غير ملتفت لامور المملكة فكرهه الناس واحبّوا اخاه طلحة الموفق بالله وظهرت منه نجابات كثيرة وكان مَيْمُون النقيبة مظفّرًا فى الحروب، وكان ظهر فى ايّام المعتمد على الله طايفة الزنج وتغلّبوا على المسلمين وكان لهم راس اسمه بُهْبُول يدّعى انه ارسله الله تعالى الى الخلق وادّعى علم المغيّبات وفتك فى المسلمين بحيث ذكر الصولى انه قتل الف الف وخمسماية الف مسلم وكان يستأسر نساء المسلمين ويبيعهنّ باخس الاثمان وكان ينادى على العلوية والشريفة بدرهمين وكان عند الزنجىّ عشر نساء شرايف يَطَؤُهنّ ويمتهنهنّ فى الخدمة الشاقّة وكان ذلك من اعظم المصايب فى الاسلام وتملّك هذا

الكافر مُدُنًا كثيرة اخذها من المسلمين واستأصل اهلها وجعلها دار مملكته كواسط وراهرمز وما والاها فانتدب لقتاله الموفّق بالله وجمع الجموع والعساكر ممّن حنّكته وقايع الحروب، ووسمته قوارع الخطوب، فاتخذهم جنانًا ويدًا، ورضي بهم ساعدًا وعضدًا، وتعصّب لعمود الاسلام، واعدّ السيوف والرماح والسهام، فركض بجحفله الى الاعداء الكفرة اللئام، الى ان التقت الفئتان على حومة الحرب، وتساقيا كؤس الطعن والضرب، فجفلت السودان من لمعان الصوارم البيض، وولّوا الادبار للفرار كما يفرّ الليل الاسود من النهار المبيّض، وانهزموا ما بين مقتول ومأسور، ومجروح ومكسور وغير مجبور، الى ان قُتل كبيرهم بهبول، ووجوه عسكره المخذول، ونصر الله تعالى ملّة الاسلام، ومحى الله تعالى بنوره ذلك الظلام، واستردّت المُدُن لله اخذها بالكفر والعناد، كواسط وراهرمز وغيرها من البلاد، واطمأنّت المسلمون وكافّة العباد، ولقّبوه الناصر لدين الله وصار له حينئذ لقبان، ودخل الى بغداد في عظمة وعُلوّ شان، وراس ذلك الكافر على رُمح ورؤس كبار عسكره على الرماح، وسمّي له المسلمون وقصده الشعراء بالقصايد والامداح، فاحبّه النساس وبَعُدَ صيتُه وكثر في بابه المدّاح، واستفحل امره ولاحت له السعادة والفلاح، واستمرّ اخوه المعتمد على حاله مُنْهمكًا في لَهْوِه ولَذّاته وله اسم الخلافة وجميع الامور يتلقّاها الموفّق بصدر مُنْشرح وسدّ غاية السداد،

وفي ايّامه في سنة ٢٧١ وقع وهنٌ في بعض جُدران المسجد الحرام من الجانب الغربي قبل زيادة باب ابراهيم وكان في نفس الجدار الغربي من المسجد الشريف باب كان يقال له باب الخيّاطين وكان بقربه دار تسمّى

دار زُبَيْدَة بنت ابى جعفر المنصور فسقطت تلك الدار على سقف المسجد الحرام فانكسرت اخشابه وانهدمت اسطوانتان من اساطين المسجد الحرام ومات تحت ذلك عشرة انفس من خيار الناس وكان عامله بمكة يومئذ هارون بن محمد بن اسحاق وقاضيها يوسف بن يعقوب القاضى ، فلمّا رُفع امرُ هذا الهدم الى بغداد امر ابو احمد الموفق بالله عامله على مكة هارون المذكور بعمارة ما تهدّم من المسجد الشريف وجهّز اليه مالًا بسبب ذلك فشرع فى عمارته وجدّد له سقفًا من خشب الساج ونقشه بالألوان المزخرفة واقام الاسطوانتَيْن الساقطتَيْن وبنى عقودها وركب السقف ونصب فى ايام عمارته سُرَادِقًا بين العُمّال والبنّائين وبين الناس ليَسْتُرَهُم من اعين من بالمسجد الى ان اكمل ذلك ولله الحمد فى سنة ٢٧٢ وركب من الحجر لَوْحَيْن فى جدر المسجد الشريف فى ذلك الجانب نقش على احدهما بالنقر فى لوح الحجر ما صورته بسم الله الرحمن الرحيم امر ابو احمد الموفق بالله الناصر لدين الله ولىّ عهد المسلمين اطال الله بقاءه بعمارة المسجد الحرام رجاء ثواب الله تعالى والزُّلفى اليه وتمّ ذلك على يد عامله على مكة ومخاليفها هارون بن محمد بن اسحاق بن موسى فى سنة ٢٧٢ ، وعلى اللوح الثانى نقر كتابة صورتها بسم الله الرحمن الرحيم امر الناصر لدين الله ولىّ عهد المسلمين ابو احمد الموفق بالله اخو امير المومنين اطال الله بقاءهما القاضى يوسف ابن يعقوب بعمارة المسجد الحرام لما فى ذلك من رجاء ثواب الله تعالى اجزل الله ثوابه واجره وتمّ ذلك على يد محمد بن العلاء بن عبد الجبّار فى سنة ٢٧٢ ، والحجران المذكوران ، لا وجود لهما الآن ، بل محاهما الدهر والازمان ، وعفى اثرهما القديم الجديدان ، كما عفى اثر غيرهما

من العمايير والبنيان، ودار عليهما الدَّوران، ولا يبقى الاثر ايضًا بعد زمان، الدهر يفجع بعد العَيْن بالاثر فيا البُكآء على الاشباح والصُّوَر، وقد نقلتُ صورة تلك الكتابات من تاريخ مكة للامام ابى عبد الله محمد ابن اسحاق الفاكهى رحمه الله تعالى، وكان للموفّق بالله ولد نجيب هو احمد ابو العبّاس جعله الموفّق ولىّ عهده واستعان به فى حروبه واحواله وظهرت به نجابة وقوّة فخشى الموفق منه على نفسه وعلى اخيه المعتمد لما راى من شجاعته وبسالته فأودعه بطن الحبس ووكّل به من يثق به فى امره واستمرّ محبوسًا الى الزمان الذى قدره الله تعالى له، ثم وقعت الوحشة بين الخليفة المعتمد على الله واخيه الموفق بالله المذكور وتباغضت قلوبهما وتشاحنت الصدور فان الرياسة الذنيوية لا تقبل الاشتراك، والغيرة على الملك والسلطنة اسرع شىء يوغر صدور الاملاك، والانفراد والاستقلال ممّا يتفانى عليه ابناء الدنيا من اصحاب الاملاك،

ما هى الّا جيفة مستحيلة عليها كلابٌ همّهنّ اجتذابها

فان تجتنبها كنت سِلْمًا لاهلها وان تجتذبها نازعتْك كلابها،

ولمّا كان المعتمد على الله مع كونه عاجزًا عن اخيه الموفّق كان يحسُده ويريد هَضْمه لاستيلآئه على المملكة ورضآء الناس عنه واشتغاله بالفحص عن احوال الرعيّة عن الملاهى والملاذ فاستعان المعتمد على الله فى هَضْم جانب اخيه بصاحب مصر يومئذ احمد بن طُولُون وكان ملكًا شجاعًا فاتكًا صاحب جيوش وجنود كثير الاموال والخزاين مستقلًّا بمملكة مصر ياخذ خراجها وكانت يومئذ عامرة آهلة كثيرة الحصول لرِفْقه برعيّته وتقويته لهم وعدم ظلمه وجَوْره عليهم فكان يحصُل منها اموالًا كثيرة جدًّا بسبب عمارتها وكانت كالروض البهيج على زهرتها ونضارتها بعد

ما كانت خراباً بيبايا اكثرها مأوى البوم والصدا، ولا تغرق اهلها ورعيتها من جور ولاتها بددا، عمرها الله تعالى بعدلة سلطاننا الاعظم، وخليفة عصرنا الاكرم الافخم، الذى عمر بعدلته البلاد، سلطان السلاطين السلطان مُراد، ألهمه الله تعالى العدل والرفق بالعباد، وفحق بسيفه الصارم اهل الظلم والفساد، واطال عمره ودولته حتى تلحق الاحفاد بالاجداد، فكاتب المعتمد على الله احمد بن طولون، وامره ان يقاتل اخاه الموفق ليخف امره بذلك عليه ويهون، وجرت بينهما من ذلك شؤون، واشتغل الموفق بذلك عن اخيه، وصار يواليه تارة ويداريه، ويباعده تارة ويدانيه، ومضى على ذلك ايام، وانقضى عليه اعوام، الى ان مالت قناة حياة الموفق كل الميل، ولزم بطون الفراش بعد متون سوابق الخيل، ووهى جسده ووهنت قواه، ولا صانه حصانه ولا وقاه، وخانه يده عن حمله قلما من بعد حطم القنا فى لبة الأسد، فلما اشتد حاله، وتحقق عند غلمانه مآله، بادروا الى الحبس وكسروه، واخرجوا منه ولده المعتضد وآووه ونصروه، وجاءوا به الى والده الموفق، فلما راه أيقن بالموت وتحقق، وقال له يا ولدى لهذا اليوم خبأتك وفوض اليه واوصاه بعمه المعتمد وكان ذلك قبل موت الموفق بثلاثة ايام فعطف الموت على الموفق عطف النسق، فركب طبقاً عن طبق الى اطباق الثرى بالعنق، ومضى عن الدار الفانية الى الدار الباقية والتحق، وكانت وفاته رحمه الله فى سنة ٢٧٨ وشمت فى موته اخوه المعتمد وظن انه استراح من الموفق، وما علم انه عن قليل بأخيه ملحق، وحسب انه صفا له زمانه ودهره وما علم ان الصفا يعقبه الكدر، وان الدهر ما صفى لاحد من البشر، وان صروف الدهر تاتى

بالغبير والعبر، وانهسا لا تبقى ولا تذر، فسا حسال عليه الحول، حتى استلب ذلك الطول والحول، ولم يكن له بعد خذلان الناصر، من قوة ولا ناصر، ولا طال عمره القصير ولا استطال حوله القاصر، ولم يسبق للمعتمد عماد ولا اعتماد على الدهر الخؤون الغادر، فانتقل من سرير الملك، الى خطير الهلك، ومضى كانّه لم يكن شيئًا مذكورا، وكان امر الله قدرًا مقدورا، وكانت وفاته ليلة الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ رحمه الله ☆

وولى الخلافة بعده فى تاريخه ابن اخيه **ابو العباس احمد المعتضد** بالله ابن طلحة الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد العبّاسى مولده سنة ٢٤٣ وبويع له بالخلافة بعد عمّه المعتمد فى تاريخ وفاته المذكور انفًا وأمّه أمّ ولد اسمها ضَوَاب وكان ملكًا مهيبًا ظاهر الجبروت وافر العقل شجاعًا يقدّم على الاسد وحده شديد السياسة قليل الرحمة اذا غضب على احد القاه فى حُفرة وطمّ عليه التراب وكان اسقط المكوس فى أيّامه ورفع الظلم عن الرعيّة وجدّد ملك بنى العبّاس بعد ما وهى ووهن، واظهر عزّة الملك بعد ما تذلّل وامتهن، وكان يسمّى السفّاح الثانى حيث جدّد كلّ منهما ملك بنى العبّاس وفى ذلك يقول ابن الرومى

هنيئًا بنى العبّاس ان امامكم ... امام الهدى والباس والجود احمدُ
كما بانى العباس انشى ملككم ... كذا بانى العباس ايضًا يجدّدُ
امامٌ يظلّ الأمس يشكو فراقه ... تأسّف ملهوف ويشتاقه غدُ

وفى ذلك يقول عبد الله بن المعتزّ ايضًا

اما ترى مُلْك بنى هاشم ... عاد عزيزًا بعد ما ذلّلا

يا طالبًا للملك لن مثله تستوجب الملك والاّ فلا ،

وكان مع سطوته وباسه يتوخّى العدلة ويبرز اموراً فى صورة الجبروت والعسف وهو فى الباطن محقّ فيما يفعله وهذا هو الراى السديد للحاكم الرشيد لجمعه ما بين سياسة الدنيا وملاحظة ما هو الحقّ عند الله تعالى ، وقد نقل الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى فى تاريخ الخلفاء عن عبد الله بن حمدون قال خرج المعتضد للصّيد يوماً وانا معه فمرّ بفتاة فعانت بعض جنوده فيها فصاح صاحبها واستغاث بالمعتضد فاحضره وسال عن سبب صياحه فقال ثلاثة من غلمانك نزلوا الفتاة فاخربوها فامر عبيده باحضارهم فضرب اعناقهم ومضى وهو يحادثنى فقال اصدقنى يا عبد الله ما الذى ينكره النّاس علىّ من احوالى فقلت له تسفك الدماء كثيرًا فقال لى ما سفكت دمًا حرامًا قطّ فقلت له بانّ ذنب قتلت احمد بن الطّيب فقال انه دعانى الى الالحاد فظهر لى الحاده فقتلته لنصرة الدين قلت فالثلاثة الذين نزلوا الفتاة الآن بمر استحللت دماءهم ولاّىّ شىء قتلتهم فقال والله ما قتلتهم وانّما استحضرت ثلاثة من قطّاع الطريق واوهمت الناس انهم هم الذين نزلوا الفتاة فامرت بضرب اعناقهم ، ثم احضر صاحب الشرطة فامره باحضار الثلاثة الذين نزلوا الفتاة فاحضرهم بانفسهم وشاهدتهم ثم امر باعادتهم الى الحبس ، وهكذا ينبغى تدبير السياسة واظهار النصفة وتخويف الجند واربابهم ، ومن معدلته انه كتب الى الافاق بابطال ديوان المواريث والامر بتوريث ذوى الارحام وكانوا يحرمونهم الميراث وكانوا يستولون على مخلّفات الاموال بالظلم ولا يتّصل الوارث بجميع حقّه من الارث بل يؤخذ كثير من عين حقّه باذواع من التعلّلات وكان يحصل على الرعيّة ظلم كثير

بسبب ذلك وبعض الظلم باقٍ الآن يسّر الله تعالى ازالته على يد سلطان عصرنا وفقه الله لاحياء المكارم، واسداء المراحم، واعانه على ابطال المظالم، ولمّا امر المعتضد بابطال ديوان المواريث فى سايرِ مملكته فرح الناس بذلك واحبّوه ودعوا له بدوام دولته وصار ما بذلك صيتٌ عظيم، واجرٌ جميل عند الله الكريم، ولعلّه هو الذى نفعه فى آخرته وادخله الله جنّات النعيم، وكان من قُضاته الامام العالم العلّامة القاضى ابو خارم بالخاء المعجمة والرآء المهملة وهو من اكابر العلماء اهل الدين والتقوى وكان من بعض تصلّباته فى الدين ان شخصا انكسر عليه مال كثير للناس وثبت ذلك عليه عند القاضى المذكور فامر بتوزيع ماله على غرمائه بالمحاصّة وكان قد انكسر على ذلك المَدْيُون مال للخليفة المعتضد ايضًا فارسل المعتضد الى القاضى ابى خارم يقول له اشركنى مع غرمآء هذا المديون بالمحاصّة فان لى ايضًا مالاً فى ذمّته فاجعلنى كأحد غرمائه فقال ابو خارم انى لا احكم لمُدّعٍ بدون بيّنة عادلة فارسلْ وكيلاً وبيّنة ارضاها لتكون باسْوَة غرماء هذا المديون فاحكُمُ لك بعد سماع الدّعْوَى والبيّنة والتزكية سِرًّا وجَهْرًا، فامر المعتضد شهوده ليشهدوا عند القاضى وكانوا من اكابر امرآئه واماثلهم فما حضر احد منهم الى القاضى خوفًا من ردّ شهادتهم ولم يحكم القاضى للمعتضد ان يكون باسْوة غرماء ذلك المديون فاعجب المعتضد ديانة القاضى وثباته على الحقّ وتصميمه على ذلك وعدم ميله اليه، وما احوجَ زماننا هذا الى قاضٍ مثل هذا خصوصًا فى اطراف البلاد، يقول الحقّ ويثبت ولا يميل الى خواطر العباد، وكان المعتضد ينظم شعرًا حسنًا ومن نظمه ما رثى به جاريته قريرة

يا حبيبًا لم يكد يعدلني عندي حبيبُ
انت عن عيني بعيد ومن القلب قريبُ
ليس لي بعدك من شي ء من اللهو نصيبُ
لك من قلبي على قلبي وان غبت رقيبُ
لو ترانى كيف حالى فرط عول ونحيبُ
وفؤادى حشوه من حرق القلب لهيبُ
لتيقنت بانى فيك محزون كئيبُ

وقال لما احتضر

تمتّع من الدنيا فانك لا تبقى وخذ صفوها لمّا صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر انى امنته فلم يبق لى حالا ولم يرع لى حقّا
قتلت صناديد الرجال فلم أدع عدوًّا ولم امهل على حسد خلقا
وأخليت دور الملك عن كلّ نازل وفرّقتهم غربًا ومزّقتهم شرقا
فلمّا بلغت النجم عزًّا ورفعة ودانت رقاب الخلق اجمع لى رقّا
رمانى الردى سهمًا فأخمد جمرتى فهانا اذا فى حفرتى عاجلًا ملقى
وافسدت دنياى ودينى سفاهة فمن ذا الذى منّى بمصرعه اشقى
فيا ليت شعرى بعد موتى ما ارى الى رحمة الله ام ناره الحرقى ؛

ومّما وقع فى ايام المعتضد من عمارة المسجد الحرام زيادة دار الندوة وادخالها فى المسجد الشريف من الجانب الشامى وهى اوّل الزيادتين وهى صحن مربّع باربعة أروقة من جوانبه الاربعة أضيف الى المسجد الحرام فى وسط الجانب الشامى ملصقة الى رواق الجانب المذكور وهذا المحلّ يسمّى دار الندوة وهى كانت فى زمن الجاهلية دارًا تجتمع صناديد قريش فيها عند نزول حادث بهم للاستشارة فى دفع ذلك الحادث عنهم

بالاتّفاق على راى يجمعون على كونه صَوَابًا فيأتون به بعد ذلك وكانت
الندوة ممّا تتفاخر به قريش فى الجاهلية وكان قد اجتمع فى قُصَىّ بن
كلاب الرفادة والسقاية والسدانة واللواء والندوة ففرّقها فى اولاده ولمّا
ظهر شان النبىّ صلعم وآمن به كثير من قريش ومن الانصار خاف منه
كُفّار قريش واجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى قتله صلعم فظهر لهم
ابليس لعنه الله فى صورة الشيخ النَّجْدى واختار لهم من الراى ما
اختاره فنجّاه الله تعالى من كيد المشركين واذن له فى الهجرة كما هو
مشهور مذكور فى كُتُب السيرة وذكره الله تعالى فى كتابه العزيز حيث
قال واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون
ويمكر الله والله خيرُ الماكرين ، وليست الزيادة فى عين دار الندوة بل
محلّها فى تلك الاماكن لاعلى التعيين من خلف مقام الحنفىّ الآن الى
آخر هذه الزيادة ، وكانت دار الندوة بعد ظهور الاسلام وكثرة بناء
الدور بمكة داراً واسعةً تنزل بها الخلفاء اذا وردوا مكة ويخرجون منها
الى المسجد الحرام للطواف والصلوة وكان لها فناءٌ واسع صار سُباطة
تُرْمَى فيه القمايم فاذا حَصَلت الامطار القويّة سار من الجبال الّتى فى
يسار الكعبة مثل جَبَل قُعَيْقعان وما حوله من الجبال سيول عظيمة الى
ذلك الفناء وحملت أوْساخه وقمايمه الى دار الندوة والى المسجد الحرام
واحتيج الى تنظيف تلك الاوساخ والقمايم من المسجد الشريف كلّما
سالت سيول هذا الجانب الشمالى وصار ضَرَرًا على المسجد الحرام ،
فكتب قاضى مكة يومئذ من قبل المعتضد العبّاسى القاضى محمّد بن
عبد الله المقدسى وامير مكة يومئذ من قبله ايضًا عجّ بن حاجّ مولى
المعتضد المذكور مكاتبات الى وزير المعتضد يومئذ وهو عبيد الله بن

سليمان بن وهب تتضمّن ان دار الندوة قد عظم خرابها وتهدّمت وكثيرًا ما تُلقَى فيها القمايم حتى صارت ضررًا على المسجد الحرام وجيرانه واذا جاء المطر سالت السيول من بابها الى بطن المسجد وحملت تلك القمايم الى المسجد الحرام وانها لو اخرج ما فيها من القمايم وتهدّمت وبُنيَتْ مسجدًا يوصل بالمسجد الحرام او جُعلت رحبة يصلّي الناس فيها ويتّسع الحجّاج بها لكانت مكرمة لم تتهيّأ لاحد من الخلفاء بعد المهدى والهادى ومَنْقَبة باقية وشرفًا واجرًا باقيًا على طول الزمان وان بالمسجد خرابًا كثيرًا وان سقفه يسيل منه الماء اذا جاء المطر وان وادى مكة قد انكبس بالاتربة فعلَت الارض كما كانت وصارت السيول تدخل من الجانب اليمانى ايضاً الى المسجد الحرام ولا بُدّ من قطع تلك الاراضى وتمهيدها وتنزيلها الى حدّ تمرّ فيه السيول مانعة عن الدخول الى المسجد الحرام ، ووقف ايضًا الى بغداد سدنة الكعبة ورفعوا الى ديوان الخلافة ان وجه جدران الكعبة من باطنها قد تشعّث وان الرخام المفروش فى ارضها قد تكسّر وان عُضادَتَىْ باب الكعبة كانتا من ذهب فوقعت فتنة بمكة سنة ٣٥١ بخروج بعض العَلَويّين فقلع عامل مكة يومئذ ما على باب الكعبة من الذهب فضربه دنانير واستعان به على حرب العَلَوِىّ الذى خرج عليه يومئذ وصاروا يسترون العضادتَيْن بالديباج ، ووقعت بعد هذا ايضاً فتنة بمكة فى سنة ٣٦٨ فقلع عامل مكة يومئذ مقدار الرُّبع من الذهب الذى كان مصفحًا على باب الكعبة ومن اسفله وما على انف الباب الشريف من الذهب فضربه دنانير واستعان به على دفع تلك الفتنة وجعل بدل الذهب فضّة مموّهة على الباب الشريف وعلى انف الباب المنيف فاذا تمسّح الحجّاج به ايام

للحجّ تبرّكًا بذلك المكان الشريف ذهب صِبْغ الذهب وانكشفت القصّة فيجدّد تمويهها كلّ سنة والمناسب اعادة ذلك ذهبًا صِرْفًا كما كان ، وان رخام الحِجْر بسكون الجيم قد تكسّر ويحتاج الى التجديد وان بلاط المَطاف حول الكعبة الشريفة لم يكن تامًّا ويحتاج الى ان يتمّ من جوانبها كلّها وان ذلك من اعظم القُرُبات واكرم المثوبات ، وقد رُفع ذلك الى الديوان العزيز للمبادرة الى انتهاز ذلك والامر راجعٌ الى ارآء الخلافة الشريفة والسلام ،

فلمّا اشرف على هذه المكاتبات كاتب الخليفة المعتضد يومئذ الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب الكاتب وكان من اهل الخير له قدم راسخ فى قصد الجميل وفعل الحسنات ، ونيّة جميلة فى احراز الاجر والمثوبات ، بادر الى عرض ذلك على اسماع الخليفة المعتضد وحسّن له اغتنام هذه الفُرصة والمبادرة اليها وبذل المقدور فيها فبرز امر المعتضد اليه والى غلامه المؤمر بالحضرة بعمل ما رُفع اليه من ترميم الكعبة الشريفة والحِجْر والمَطاف والمسجد الحرام وان تُهْدَم دار الندوة وتُجْعَل مسجدًا يلحق بالمسجد الحرام ويُوصَل به وان يحفر الوادى والمسيل والمَسْعَى وما حول المسجد الحرام ويُعْمَق حفرها الى ان يعود الى حاله الاول ويجرى ماء السيل فيه ولا يدخل شىء منه الى المسجد الحرام فينصان المسجد بذلك من دخول السيول اليه وان يُحْكَم ذلك غاية الاحكام ويُعْمَر ما تجب عمارته على وجه الاتقان والاستحكام وامر ان يُحْمل من خزانته مالًا عظيمًا لهذا العمل وامر قاضى بغداد يومئذ وهو القاضى يوسف بن يعقوب ان يرتب ذلك ويجهّز لعمله من يعتمد عليه وامر بحمل المال اليه فجهّز بعضه نَقْدًا فى ايام الحجّ مع ولده ابى بكر عبد

الله بن يوسف وكان مقدّمًا على حواجّ الخلافة ومَصالح طريق الحجّ وعمارتها وارسل بباقى المال سفاتج سلّمها الى ولده المذكور ليتسلّمها ممّن كتب اسمه من تلك السفاتج بمكّة وعيّن معه لهذه الخدمة رجلًا يقال له ابو الهيجاء عبيرة بن حيّان الاسدى له امانة وحسن راى ونبّهه جميلة وسيرة حسنة ، فوصلا الى مكة المشرفة فى موسم حجّ سنة ١٨١ فحلّى بالذهب الخالص باب الكعبة الشريفة وحجّ وتخلّف بعد الحجّ بمكة ابو الهيجاء المذكور ومن معه من العمّال والاعوان وعاد عبد الله بن القاضى يوسف مع الحجّاج الى بغداد ليرسل اليه ما يحتاج اليه من بغداد لتكميل ما امر به من العمارة المذكورة ، فشرع ابو الهيجاء فى حفر الوادى وما حول المسجد الحرام فحفره حفرًا جيّدًا حتى ظهر من درج المسجد الحرام الشارعة على الوادى اثنتا عشرة درجة وانما كان الظاهر منها خمس درجات فحفرت الارض ورُمى بترابها خارج مكة ونُظفت دار الندوة من القمامم والاتربة وهُدمت وحُفر اساسها وبُنيت وجُعلت مسجدًا وأُدخلت فيها ابواب المسجد التى كانت شارعة قبل هذا البناء ثم فتح لها من جدار المسجد الكبير ستّة ابواب كبار سعة كلّ باب خمسة اذرع وارتفاع كلّ باب من الارض الى جهة السماء احد عشر ذراعًا وجعل بين الابواب الكبار ستّة ابواب صغار ارتفاع كلّ باب ثمانية اذرع وسعة كلّ باب ذراعان ونصف وجعل فى هذه الزيادة بابان بطاقيّين شارعين الى الخارج فى جانبها الشمالى وباب بطاق واحد فى جانبها الغربى واقيمت أروقتها وسقوفها من جوانبها الاربعة ورُكبت سقوفها على اساطينها وسُوّيت سقوفها بخشب الساج وجعل لها منارة وفرغ من عمارتها فى ثلاث سنين ولعلّ اكمالها فى سنة ١٨٤ الّا انها ما استمرّت

على هذه الهيئة بل غُيّرت بعد قليل الى وضع آخر احسن منه بعد المعتضد المذكور، قال محمد بن اسحاق الفاكهي في تاريخ مكة ان ابا الحسن محمّد بن نافع الخزاعي ذكر في تعليق له ان قاضي مكة محمّد ابن موسى القاضي لمّا كان اليه امر البلد جدّد بناء زيادة دار الندوة وغيّر الطاقات التي كانت فتحت في جدار المسجد الكبير وجعلها متساوية واسعة بحيث صار كلّ من في زيادة دار الندوة من مصلّ ومعتكف وجالس يمكنه مشاهدة البيت الشريف وجعل اساطينها حجرًا مدوّرًا منحوتًا وركب عليها سقوفًا من الخشب الساج منقوشًا مزخرفًا وعقودًا مبنيّة بالاجر والجصّ ووصل هذه الزيادة بالمسجد الكبير وصولًا احسن من الاول وجدّد شرفتها وبيّضها وانه عمل ذلك في سنة ستّ وثلثمائة انتهى، ولقد كان ابتداء عمارة هذه الزيادة الكبرى مأثرة عظيمة، ومنقبة كريمة، اتى بها المعتضد بالله، وأثرًا باقيًا له على صفحات هذا الدهر ما فاز بها سواه، وفعل الخير لا يزال يُذكر، وصاحبه يُمدح بألسنة الخلق ويُشكر، وقد بلي عظامه تحت التراب الأغفر، فما مات من يُذكر بالجميل بعد ان يُقبر، وما عاش من عاش بالسوء حين يُذكر،

ما عاش من عاش مذمومًا خصايله ولم يَمُتْ من يَكُنْ بالخير مذكورا،

واستمرّت تلك الاساطين المنحوتة من الاحجار السود عليها اسقف الساج المزخرف المنضود مشيدة باقية الى ان ادركناها في عصرنا، ثم بدّلت بالاساطين المنحوتة من الرخام الابيض المومر ما بينها لتوثيقها اساطين منحوتة من الشمبسي الأصفر، بعقود محكمة أزين من عقود الجوهر، وجعل عوض السقف الذي يبلى خشبه كل حين، قببًا مرفوعة

نزهة للناظرين، فى غاية الاتقان والتزيين، فى زمان سلطاننا الاعظم، ودولة خاقاننا الافخم الاكرم، سلطان سلاطين الزمان، السلطان مُرَاد خان، ابن سليم خان بن سليمان خان بن عثمان، خلّد الله تعالى سلطانه، وافاض على العالمين بِرّه واحسانه، رجعنا الى ما كنّا فيه من اخبار المعتضد العبّاسى، وما وقع له من الباس الذى ليس منه آسى، ولمّا ان عَضّد المعتضد عضد الموت العاضد، وقطع عِرق حياته مَباضع الزمان الحاسد، وما جَنّه عن الحِمام قوّته، ولا منعته عنه منعته ولا هيبته، فانزلته يد المنايا من سرير الخلافة والملك، واركبته سرير الآلة الحدباء الى شفير حفير الفناء والهلك، ودفنته فى تربة عمله الصالح، وسقت ثراه بما طاب من تنسمه الفايح، ومن اغرب ما حكاه المسعودى رحمه الله عن المعتضد فى وفاته انه اعتلّ من افراطه فى كثرة الجماع وطالت علّته وغشى عليه فشكّ مَنْ حوله فى موته وكان لا يَجْسُر عليه احدٌ لشدّة هيبته فتقدّم اليه الطبيب يختبره بجسّ نبضه ففتح عينيه وغضّ لذلك فرفس الطبيب برجله رفسةً فدحاه ارضًا فمات الطبيب ثم مات المعتضد من ساعته وكانت وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من ربيع الاخر سنة ٢٨٩ وخلف من الاولاد اربعة ذكور واحدى عشرة بنتًا وكانت مدّة ملك المعتضد تسع سنين وتسعة اشهر ونصف رحمه الله ☆

فصل لمّا اشتدّ المرض بالمعتضد جعل ولىّ عهده من بعده ولده ابا محمّد عليًّا ولقبه المكتفى بالله واخذ له البيعة قبل موته بثلاثة ايام فلمّا توفّى المعتضد رحمه الله تعالى كان المكتفى غايبًا بالرقّة فنهض باعباء البيعة له الوزير ابو الحسين القاسم بن عبد الله وكتب اليه فوصل الى بغداد من الرقّة فى سابع جمادى الاولى وكان يوم وصوله

يومًا مشهودًا زيّنت له بغداد ونزل دار الخلافة وخلع على الوزير المذكور سبع خلع عظيمة ومدحه الشعراء وانعم عليهم بالجوايز السّنيّة وكان مولده فى غرّة ربيع الاول سنة ٢٦٤ وأمّه أمّ ولد تركيّة اسمها چچك وكان مليح الصورة يُضرب بحُسْنه المثل وقال فيه القايل يَصِف الدنيا

ميّزت بين جمالها وفعالها فاذا الملاحة بالقباحة لا تَفِى
والله لا اختارها ولو انّها كالبدر او كالشمس او كالمُكْتَفِى

وكانت سيرته حسنة وافعاله حميدة فاحبّه الناس وفرحوا بخلافته ودعوا له ، وذكر عبد الغافر فى تاريخ نيسابور عن ابن ابى الدُّنْيَا وكان مُعَلِّمًا للمكتفى قبل ان يلى الخلافة قال فلمّا افضت الخلافة الى المكتفى كتب اليه هذَيْن البيتَيْن

ان حقّ التاديب حقّ الأُبوّة عند اهل النّجى واهل المروّة
واحقّ الرجال ان يحفظوا ذا ك ويرعوه اهل بيت النّبوّة

انتهى ، ومن اعظم الحوادث فى ايّامه ظهور القَرامطة الملحدين ، بل الكفرة المفسدين ، اعداء الدين ، فاوّل من خرج منهم يحيى بن مهرويه القرمطى ومحلّ خروجهم ودار ملكهم هَجَرُ وهم طايفة اباحيّة يستحلّون دماء الحُجّاج والمسلمين يَدّعون ان الامام الحقّ بعد النبىّ صلعم محمد ابن الحنفيّة ابن على بن ابى طالب رضه وينتسبون اليه بالسباطل ويسندون اليه اقاويل باطلة لا أَصْلَ لها ويُكفّرون من عَداهم وهم الكفرة الفجرة قاتلهم الله تعالى ، ولمّا ظهر بالخروج يحيى المذكور جهّز عليه المكتفى بالله جيوشًا واستمرّ القتال بينه وبين عساكر الخليفة الى ان قُتل وسيق الى جهنّم وبِئْسَ المَصِيرُ فقام بعده اخوه الحُسين واظهر شامة بوجهه الاسود زعم انها آيته وظهر ابن عمّه عيسى بن مهرويه

وتلقّب بالمدثّر وزعم انه المراد بالسورة الشريفة ولقّب غلاماً له مظلماً بالمُطوّق بالنور تسمّى امير المومنين وزعم انه المهدى ودعى لنفسه على المنابر وافسد بالشام وعاث فيها فحوربوا وقُتل الثلاثة وحُزّت رؤسهم وطِيفَ بها فى البلاد سنة ١١ وخلف من بعدهم خلفٌ ظهرت منهم مفاسدُ سيأتى ذكرها استطراداً وتَعِبَ المسلمون كثيرًا فى امرهم الى ان خذلهم الله تعالى وسنذكر ذلك قريبًا ان شاء الله تعالى ، ولم يطل زمان المكتفى بالله وكانت مدّة ملكه ستة اعوام ونصف ولمّا مرض مرض الموت وتيقّن بالفناء والفَوت سال عن اخيه ابى الفضل جعفر بن المعتضد فقيل له انه احتلم واتّضح ذلك عنده فجعله ولىّ عهده ولقّبه المقتدر بالله وبويع له على ان يكون للخليفة بعده ، قال الصولى رحمه الله سمعت المكتفى يقول فى علّته التى مات فيها والله ما آسى الاّ على سبعماية الف دينار صرفتها من بيت مال المسلمين فى ابنية وعمارات لا احتاج اليها ، وذكر ابو منصور الثعالبى قال حكى ابراهيم بن نوح ان الذى خلفه المكتفى ممّا جمعه هو وابوه لا غير ماية الف الف دينار ما بين عين وامتعة واوانى وعقارات وكان من جملة الامتعة ثلاثة وسبعون الف ثوب ديباج فسبحان من بيده خزاين السموات والارض له الملك واليه ترجعون ، ولمّا جاءه الاجل المحتوم المقدّر وتَلَى لسان حاله ان اجلَ الله اذا جاء لا يُؤخّر انقصف غُصن شبابه القشيب وبَيِسَ عُود جماله النّضير الرطيب وصار بدر كماله محسوفاً وعاد نور مُحَيّاهُ المشرق بالجمال مظلماً مكسوفاً فانتقل من دار الفناء الى دار الجزاء والبقاء فى ليلة الاحد لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ذى القعدة الحرام سنة ٢٩٥ رحمه الله وخلف ثمانية اولاد ذكور وثمانى بنات ،

وولى بعده بالخلافة اخوه ابو الفضل جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بالله بن الموفق بالله بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد العبّاسى بايعه النـاس وعمره ثلاث عشرة سنة ولم يل الخلافة قبله اصغر منه ذكره الجلال السيوطى ، وأُمّه أُمّ ولد تسمّى شعيب وولى الخلافة ثلاث مرّات هذه الاولى منها ولم يتمّ له فيها امرٌ لصغر سنّه فتغلّب الجند عليه واتّفقوا على خلعه فخلعوه وعقدوا البيعة لابى العبّاس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ولقبوه الغالب بالله وبايعوه لعشر بقين من ربيع الاول سنة ٢٩٦ واستمرّ خليفة ساعة من ذلك النهار وعبد الله بن المعتزّ لقصر زمان خلافته لا ينبغى عدّه من الخلفاء ولكن نذكره لفضله وادبه وهو اشعر بنى العبّاس بل اشعر بنى هاشم على الاطلاق وانثرهم فصلاً وادباً ودخولاً ومعرفة بعلم الموسيقا واشعر الشعراء مطلقاً فى التشبيهات المبتكرة الغريبة المخترعة الموقصة الّتى لا يشقّ غباره فيها احدٌ ، مولده فى شعبان سنة ٢٤٩ قال المعافا بن زكريّاء لمّا بويع لابن المعتزّ دخلت على شيخنا محمد بن جرير الطبرى العالم الكبير المفسّر المحدّث المؤرّخ رحمه الله تعالى فقال لى ما الخبر فقلت بويع بالخلافة لعبد الله بن المعتزّ قال فمن توشّح لوزارته فقلت محمد بن داود قال فمن قاضيه قلت ابو المثنّى فاطرق قليلاً ثمّ قال هذا امرٌ لا يتمّ فقلت ولم لا يتمّ قال كلّ واحد ممّن ذكرت ذو شان عظيم متقدّم فى علمه وفضله وعقله وان الدنيا مُوَلّية والزمان مُدبِرٌ ولا مناسبة لاحد ممّن ذكرت برياسة فى مثل هذا الزمان وما ارى هذا العقد الّا الى الانحلال والاضمحلال فقدّر الله تعالى انهم خلعوه فى ذلك اليوم وثلاثا امره ، فان عبد الله بن المعتز لمّا عُقِدَتْ له الخلافة ارسل

الى المقتدر يامره باخلاء دار الخلافة وان يذهب الى دار محمد بن طاهر
ينتظر فى امره فلمّا جاء الرسول الى المقتدر وبلّغه الرسالة قال ليس لى
عندى جوابٌ غير السيف ولبس السلاح وركب مع جماعة قليلة من
خدمه وهم مستسلمون للقتل فى غاية الخوف والرعب فهجموا على عبد
الله بن المعتز فاشاله ذلك والقى الله تعالى فى قلبه الرعب فانهزم هو
ووزيره وقاضيه وكلّ من فى ديوانه ظنّا ان خلف هولاء اعوانًا وانصارًا
وقبض المقتدر على عبد الله بن المعتز وعلى بعض الامرآء والفقهاء وسلّمهم
الى مونس الخادم وقتل منهم من اراد وحبس عبد الله بن المعتز ثم
أُخرج من الحبس ميّتًا واستقام الامر للمقتدر وهذه ولايته الثانية فسار
احسن سيرة واستقامر امره بعد الاضمحلال، وطلعت شمس سعادته
بعد الزوال، ولاح بدر فلاحه من أوج الكمال، والعزّة لله الكبير المتعال،
وحيث انجرّ الكلام الى ذكر عبد الله بن المعتزّ فلا باس بتنميق هذه
العجالة، وتزويق هذه الرسالة، بذكر بعض اشعاره المستظرفة ليعلم
البلغاء مرتبته فى البلاغة واقتداره على اللام فنورد قصيدته فى الجسة
لله فاخر بها آل النبيّ صلعم ولا يخفى ان الاقدام على مثل ذلك يدلّ
على قوّة الطّبع فان الادّعآء لمثل هذا المطلب العالى من امثاله محجوجٌ فى
الاسماع منفور فى الطباع فاذا ابرزه مع ذلك فى قالب مطبوع دلّ ذلك
على قوّة طبع الشاعر كما قال شاعر عصره الاديب المفوّه ابن الرومى رحمه
الله تعالى

فى زخرف القول تزيينٌ لباطله ... والحقُّ قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وان تعبْ قلتَ ذا قيءُ الزنابير
مدحًا وذمًّا وما جاوزت حدّهما ... سحر البيان يُرى الظلماء كالنور

وهذا منتخب تلك القصيدة الّتى فاخر فيها بين قومه بنى العبّاس وآل ابى طالب رضى الله عنهم فى الخلافة وما انصف فيها ادّعاه ولنسمه الى بشعر بليغ فى معناه فقال

الا من لعينٍ تسكبا بعبرها ... تشكى القذاة بكاها بها
تزاحمت بنا حادثات الزمان ... تزاحمى القسىّ بنشابها
ويا ربّ السنة كالسيوف ... تقطع ارقاب اصحابها
وكم ذاق المرء من نفسه ... مذاقه حدّ انيابها
وان فرصة امكنت فى العدوّ ... فلا تبد فعلك الا بها
فان لم تلج بابها مسرعًا ... اتاك عدوّك من بابها
وما نافع ندمٌ بعدها ... وتاميل اخرى وأنّى بها
وما ينتقص من شباب الرجال ... يزد فى نهاها والبابها
ذهبت بنى رحى ناصحًا ... نصيحة برٍّ بانسابها
وقد ركبوا بغيهم وارتقوا ... معارج تهوى بركّابها
ورامو فرايس اسد الشرى ... وقد نشبت بين انيابها
دعوا الاسد تفرس ثم اشبعوا ... بما تفضل الاسد فى غابها
فقلنا اميّة فى دارها ... وكنّا احقّ باسلابها
ومنّا ابى الله ان تملكوا ... نهضنا اليها وثنّا بها
ونحن ورثنا شباب النبىّ ... فكم تجذبون باهدابها
الم رحم يا بنى بنته ... ولكن بنو العمّ اولى بها
فهلّا بنى عمّنا انتهت ... عطيّة ربّ حبانا بها
وكانت تزلزل فى العالمين ... فشدّت لدينا باطنابها
واقسم انكم تعلمون ... بانّا لها خير اربابها

فردّ عليه شاعر زمانه وبليغ اوانه الصّفي الحلّيّ بقوله

الا قُلْ لشرّ عبيد الاله ... وطاغي قريش وكذّابها
افنت تفاخر آل النبيّ ... وتجحدها حقّ انسابها
بكُمْ باهَلَ المصطفى امر بهم ... فردّ العداة بأوْصابها
اعَنْكم نفى الرجس ام عنهم ... لطُهْر النفوس وألْبابها
اما الشربُ واللّهْوُ من دَأْبكم ... وفَرْط العبادة من دابها
هم الصايمون هم القايمون ... هم العالمون بآدابها
هم الزاهدون هم العابدون ... هم الساجدون بمحْرابها
هم قطب ملّة دين الاله ... ودَوْر الرحى باقطابها
تقول ورثنا ثياب النبيّ ... فكم تجذبون بأهْدابها
وعندك لا تُورَث الانبياء ... فكيف حظيتم باثوابها
ابوهم وصيُّ نبيّ الاله ... واهل الوصيّة اولى بها
أجَدُّك يَرْضَى بما قُلْتَه ... وما كان يوماً بمُرْتابها
وكان بصِدّيقين من حِزْبهم ... لحرب البُغاة وأحْزابها
وصلّى مع الناس طول الحياة ... وحَيْدَر في صَدْر محرابها
فهَلّا تقمّصها جَدُّكم ... وهل كان من بعض خُطّابها
واذ جعل الأمْر شُورَى لهم ... فهل كان من بعض اربابها
وقولك انتم بنو بِنْته ... ولكن بنو العمّ اولى بها
بنو البنت ايضاً بنو عمّه ... وذلك ادنى لانسابها
وقلت بانّكم القاتلون ... أُسُود اميّة في غابها
كذبتَ ولولا ابو مُسْلِم ... لعَزّت على جهد طلّابها
وقد كان عبداً لهم لا لكم ... راى عندكم قُرب انسابها

وكنتم اسارى بطون الحبوس وقد شفكم لثم اعتابها
فاخرجكم وحباكم بها وتمّمكم فضل جلبابها
فجازيتموه بشرّ الجزا لطغوى النفوس واحجابها
فدع فى الخلافة فضل الخلاف فلسْتَ ذلولاً لركّابها
وما انت والفحص عن شانها وما تقصوك بأنوابها
وما ساورتك سوى ساعة فما كنتَ اهلاً لأسبابها
ودعْ ذكر قوم رضوا بالكفاف وجاءوا القناعة من بابها
عليك بلهْوك بالغانيات وخلّى المعالى لاربابها
ووصْف العذار وذات الخمار ونعْت العُقار بألقابها
فذلك شانك لا شانهم وحرق الجياد باحسابها

ومن السحر الحلال الذى عقده فى سلْك اللآل، ورقّه بقلم البلاغة على صفايح الايام والليال، هذا المُوشّح الذى يصلح وشاحاً للواكب الجوزاء، واكليلاً على التاج للحلّى بنجوم الثريّا، سارت به الرُّكبان، وتناقلته الرُّواة بألْسنة الازمان، قوله

ايّها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسْمع
وندیم همْتُ فى غرّته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سَكْرته
جذّب الزُّقّ اليه واشتكى وسقانى اربعاً فى أربع
ما لعَيْنى عشيتْ بالنظر
انكرت بعدك ضوء القمر
واذا ما شيبت فاسمع خبرى

عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى

غصن بان مال من حيث النوى

مات من يهواه من فرط الجوى

خفق الاحشاء موهون القوى

كلما فكر فى البين بكى وجه يبكى لما لم يقنع

ليس لى صبر ولا لى جلد

يا نفوسى عذلوا واجتهدوا

اذكروا شكواى مما أجد

مثل حالى حقيا ان يشتكى كمد اليأس وذل الطمع

كبدى حرا ودمعى يكف

يذرف الدمع ولا يعترف

ايها المعرض عما أصف

قد تمما حبى بقلبى وزكا لا تقل فى الحب انى مدعى

ومن تشبيهاته الرايقة واشعاره الفايقة قوله

ومقرطق يسعى الى الندماء بعقيقة فى درة بيضاء

والبدر فى افق السماء كدرهم ملقى على ياقوتة زرقاء

وله فى المثلث وهو معنى بديع

خليلى طاب الراح من بعد طبخها

وقد عدت بعد السكر والعود أحمد

فهاتا عقارا من قميص زجاجة

كياقوتة فى درة تتوقد

يصوغ عليها الماء شبّاك فضّة
لها حَلَقٌ بيضٌ تحلّ وتُعقَدُ
وقتنيَ من نار الجحيم بنفسها
وذلك من احسانها ليس يُجحَدُ ،

وله من التصانيف كتاب الزهر والرياض وكتاب مفاكهات الاخوان وكتاب الصيد والجوارح وكتاب السرقات الشعرية وكتاب اشعار الملوك وكتاب طبقات الشعراء وديوان شعره وغير ذلك ، ومن كلامه البلاغة لبلوغ الى المعنى ولم يطل سفر الكلام ، واشعاره البليغة وتشبيهاته الغريبة كثيرة شهيرة لا نطوّل بها هذه العجالة ،

ولمّا تقرّر امر المقتدر فى التمكّن والاقتدار ، واستقرّت خلافته اتمّ استقرار استوزر ابا الحسن على بن محمّد بن الفرات فسار احسن سيرة واستقرّ فى الخلافة الى سنة ٣١٧ فخرج مونس الخادم على المقتدر فركب وركب معه الجيش والامراء وجاءوا الى دار الخلافة فهرب خواصّ المقتدر من داره ونهبوا قَوْرًا دار الخلافة فكان ممّا نهب ستّمائة الف دينار لأمّ المقتدر فاشهد المقتدر على نفسه بالخلع لاربع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣١٨ واحضروا ابا منصور محمد بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وبايعه مونس والامراء ولقّبوه **القاهر بالله** وفوّضت الوزارة الى الوزير ابى على ابن مُقْلَة الكاتب المشهور وجلس القاهر يوم السبت وكتب الوزير ابن مقلة الى سايير البلاد وعمل يوم الاثنين الديوان فجاء العسكر يطلبون منه انعام الجلوس فارتفعت الاصوات فمنعهم الحاجب من الدخول الى الخليفة فقتلوا الحاجب ومالوا الى دار مونس واخرجوا المقتدر من الحبس وحملوه على اعناقهم الى دار الخلافة

فجلس على السرير وأتوا باخيه محمد القاهر اليه وهو مقهور يبكى ويقول الله الله يا اخى فى روحى فاستدناه المقتدر وقبّل بين عينى اخيه وقال له يا اخى لا تذنب لك انت مغلوب على امرك والله لا ينالك منّى مكروه فطيّب نفسًا وقرّ عينًا ولما زال روعه آوى اليه اخاه قال انى انا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون وبذل المقتدر الاموال للجند واستوضحهم وثبتت له الخلافة وهذه ثالث مرّة والثالثة ثابتة والله اعلم ء

فصل ومن جملة محاسن المقتدر انه زاد فى المسجد الحرام زيادة باب ابراهيم وهى الزيادة الثانية فى الجانب الغربى من المسجد الحرام ويقال لها زيادة باب ابراهيم وليس المُراد به سيّدنا الخليل عليه وعلى نبيّنا وسايير الانبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه بل كان ابراهيم هذا خيّاطًا يجلس عند هذا الباب دهرًا فعُرف به وكان قبل هذه الزيادة باب متّصل بأروقة المسجد الحرام بقرب باب الحَزْورة يقال له باب الخيّاطين وبقربه باب ثانٍ يقال له باب بنى جُمَح وخارج هذين البابَيْن ساحة بين دارين لزُبَيْدة أمّ الامين بُنيَتا فى سنة ثمان ومايتَيْن وما بقى لتلك الدارين اثرٌ الآن والذى يظهر ان دارَىْ زُبَيْدة كانت احداهما فى الجانب الشامى فى مكان رباط الخوزى الآن وكانت الاخرى تقابلها من الجانب اليمانى من تلك الزيادة وهى رباط رامشت الذى يعرف الآن برباط ناظر الخاصّ فأُدخلت هذه الساحة لله بين الدارين فى المسجد الحرام وأُبطل البابان يعنى باب الخيّاطين وباب بنى جُمَح حيث دخلا فى المسجد الحرام وجُعل عوض البابين باب كبير هو المسمّى بباب ابراهيم فى غربى هذه الزيادة ذكر الحافظ نجم الدين عمر بن فَهْد رحمه الله فى حوادث سنة ٩٠٣ فى كتابه اتحاف الورى باخبار أمّ القرى وفيها زاد قاضى مكة

يومئذ محمد بن موسى فى الجانب الغربى قطعة عند باب الخيّاطين وباب بنى جُمَح وفى السُّوح الذى كان بين دارى زبيدة أمّ الامين وعمل ذلك مسجداً أوصَلَه بالمسجد الكبير وطول هذه الزيادة من الاساطين الى فى وزان جُدر المسجد الحرام الى العتبة التى عليهما باب ابراهيم سبعة وخمسون ذراعاً الّا سُدْس ذراع وعرض هذه الزيادة من جانبها الشامى الى جانبها اليمانى وذلك من جدر رباط الخوزى الى جدر رباط رامشت اثنان وخمسون ذراعاً وربع ذراع وفى هذه الزيادة فى جانبها الشرقى المتّصل بالمسجد الكبير صفّان من الرواق على اساطين منحوتة من الحجارة وكذلك فى جانبها الشمالى ولم يكن فى جانبها الغربى رواق وفى جانبها اليمانى سبيل ماء وسط رواقَيْه ، وكانت لهذه الزيادة منارة ذكرها التقى الفاسى فى شفاء الغرام ، قُلْتُ امّا المنارة فلا ادرى من بناها ولا متى بُنيت ولا متى هُدمت وامّا السبيل فكان موجوداً الى سنة ٩٨٣ فهُدم عند وصول العمارة الشريفة السلطانية اليه وأُعيدَ بناؤه سبيلاً كما كان ، وهذه الزيادة الثانية وقعت فى ايام المقتدر العبّاسى رحمه الله تعالى ،

ومن جملة محاسن المقتدر ايضاً انه ابطل من ديوانه استخدام اهل الذمّة من اليهود والنصارى وابطل تصرُّفهم فى الاموال السلطانية واعاد الامر بتوريث ذوى الارحام فى سايو ممالك الاسلام وأتْلَفَ كثيرًا من الاموال وافرغ خزاين بيت المال وباع كثيراً من الضياع حتى ارضى الجند باكمال عطيتهم ، وكان يفرّق يوم عرفة كلّ عام من الابل والبقر اربعين الف راس ومن الغنم خمسين الفًا كذا ذكره الجمال يوسف بن تغرى بردى فى تاريخه مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة ، وقال ابسو

للحاسن يوسف سبط ابن الجوزى رحمه الله وكان المقتدر يصرف فى كل سنة فى طريق مكة والحرمين ثلاثمائة الف دينار وخمسة عشر الف دينار وقال الحافظ السيوطى كان النساء غلبن على المقتدر فاخرج عليهن جميع جواهر الخلافة ونفايسها واعطى بعض حظاياه الدرّة اليتيمة وكان وزنها ثلاثة مثاقيل واعطى زبدان القهرمانة سُبْحة جوهر لم ير مثلها وكان فى داره احد عشر الف غلام خصىّ غير الصقالبة والروم والسود وكان مبلغ النفقة على بيمارستان امّ المقتدر فى كلّ عام سبعة الاف دينار وانه ختن خمسة من اولاده فصرف فى ختانهم ستّمائة الف دينار وقدمت رُسُل ملك الروم بهدايا لطلب الهُدْنة فعمل المقتدر موكبًا عظيمًا لارهاب العدوّ فاقام مائة وستّين الف مقاتل بالسلاح الكامل بِمَاطَيْن من باب الشمّاسية الى دار الخلافة ببغداد ثمّ الرُّسُل بينهما فى هذه المسافة واقام بعدهم الخدام وهم سبعة الاف خادم ثم الحُجّاب وهم سبعمائة حاجب وكانت الستور التى نُصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين الف ستر من الديباج وكانت البُسُط الفاخرة التى فُرشت فى الارض اثنين وعشرين الف بساط وفى الحصيرة مائة سَبُع فى سلاسل الذهب والفضّة وغير ذلك وزاد الجمال يوسف ابن تغرى بردى من جملة الزينة شجرة صِيغَت وصُنِعَت من الذهب والفضّة والجواهر تشتمل على ثمانية عشر غُصْنًا اوراقها من الذهب والفضّة واغصانها تتمايل بحركات مصنوعة وعلى الاغصان طيور مصنوعة من ذهب وفضّة تنفخ الريح فيها فيسمع للكلّ طير صَدْح مفرد وصفير خاصّ وهذا بعد وَهْن الدولة العبّاسية وضعفها فكيف كانت زينتها فى ايام قوّة دولتهم فى كمال وصفها

فسبحان من لا يزول ولا يزال، ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال، ولا تغيّره السنون ولا تحوّله الاحوال، وهو الله الملك الكبير العظيم المتعال، له الملك وحده لا شريك له ولا ضدّ ولا ندّ ولا مثال، كوّن الاكوان وقدّرها تقديرًا، ولم يتّخذ صاحبة ولا وزيرًا، تعالى شأنُهُ وعلا سلطانه عُلُوًّا كبيرًا، وقُلْ الحمد لله الذى لم يتّخذ ولدًا ولم يَكُنْ له شريك فى الملك ولم يكن له وليٌّ من الذُّلّ وكبّره تكبيرًا،

فصل واوّل ما ظهر من الوَهْن للخلافة فى ايام المقتدر ظهور الطايفة الملحدة التى تُسمّى القرامطة لهم اعتقاد فاسد يُؤدّى الى الكفر يستبيحون دماء المسلمين وينتسبون الى موالاة محمد ابن الحنفيّة من اولاد سيّدنا على بن ابى طالب رضه ويَرَوْنَ ضلال كافّة المومنين فاوّل نجس خبيث ظهر منهم ابو طاهر القرمطى وبَنَى دارًا فى هَجَرَ سمّاها دار الهجرة اراد نقل الحجّ اليها لعنه الله تعالى واخزاه، وكثر فتكه فى المسلمين وسفك دماء المومنين الى ان اشتدّ به الخطب وانقطع الحجّ فى ايامه خوفًا منه ومن طايفته الفاجرة واشتدّت شَوْكتهم، ففى اواخر عام ٣١٧ لم يشعر الحجّاج يوم التروية بمكة الا وقد وافاهم عدوُّ الله ابو طاهر القرمطى فى عسكر جرّار فدخلوا بخيلهم وسلاحهم الى المسجد الحرام ووضعوا السيف فى الطايفين والمصلّين والمحرمين مجرّدين فى احرامهم الى ان قتلوا فى المسجد الحرام وفى مكة وشعابها زهاء ثلاثين الف انسان وتلك مُصيبة ما أُصيبَ الاسلام بمثلها وركض ابو طاهر بسيفه مشهورًا فى يده وهو سكران فصفر بفرسه عند البيت الشريف فراث وبال والحجّاج يطوفون حول بيت الله الحرام والسيوف تَنُوشهم الى ان قُتل فى المطاف الشريف الف وسبعماية طايف مُحْرم ولم يقطع طوافه علىّ بن بابويه وجعل يقول

وهو ينشد

ترى للحبين صَرْعَى فى ديارهم كفِتْيَةِ الكَهْف لا يدرون كم لبثوا

والسيوف تقفوه الى ان سقط ميّتًا رحمه الله ، وطُمّت بأشلاء الشهداء بئر زمزم وما بمكة من آبار وحُفَر قد مُلِأَت بهم وطلع ابو طاهر الى باب الكعبة وقلع بابها الشريف وصار يقول

انا بالله وبالله انا يخلق الخلق وافنيهم انا

وصاح فى الحجّاج يا حَمير انتم تقولون ومن دخله كان آمنًا فأين الامن وقد فعلنا ما فعلنا فاخذ شخصٌ بلجام فرسه وقال وقد استشهد مستسلمًا للقتل ليس معنى الاية الشريفة ما ذكرتَ وانّما معناها ومن دخله فامنوه فلَوى ابو طاهر عنان فرسه عنه ولم يلتفت اليه وصانه الله تعالى ببركة بذل نفسه فى سبيل الله والردّ على ذلك الكافر اخزاه الله تعالى واراد قلع الميزاب وكان من ذهب فاطلع قرمطيٌّ يقلعه فأُصيبَ بسَهْم من جبل ابى قُبَيْس فا اخطأ نحره وخرّ ميّتًا وامر آخر مكانه فسقط من فوق الى اسفل على راسه فهساب الثالث عن الاقدام على القلع فمضى ابو طاهر وتركه على رغم انفه وقال اتركوه حتى ياتى صاحبُهُ يعنى المهدى الذى يزعمر انه يخرج منهم ، وكان ممّن قُتل بمكة امير هرا ابن محارب والحافظ ابو الفضل محمد بن الحسين بن احمد الجارودى الهَرَوى اخذته السيوف وهو متعلّق بيَدَيْه بحلقة باب الكعبة حتى سقط راسه على عتبة باب بيت الله تعالى واخوه امام الفقهاء الحنفيّة الفقيه ابو سعيد احمد بن الحسين البَرْدَعى والشيخ ابو بكر بن عبد الرحمن بن عبد الله الرُّهَاوى وشيخ الصوفية على بن بابويه المصروفى والشيخ محمد بن خالد بن زيد البردعى نزيل مكة وجماعة كثيرون

من العلماء والصلحاء والصوفية والحجّاج من اهل خراسان والمغاربة ونُهبت اموالهم وسُبيت نساؤهم وذراريهم ونُهبت دور الناس وقُتل من وُجد من اهلها الّا من اختفى فى الجبال ، وممّن هرب من مكة يومئذ قاضيها يحيى بن عبد الرحمن بن هارون القرشى مع عياله الى وادى رَهْجان ونَهَبَت القرامطة من داره وأثاثه واموالهِ ما قيمتُه ماية الف دينار فافتقر بعد تلك الثروة ، وكذلك نُهبت دور اهل مكة الى ان صار الباقى ممّن نجا من تلك الواقعة فُقَرآء يستعطون ولم يحجّ فى هذا العام احد ولا وقف بعَرَفَةَ الا عدد يسير فازوا بانفسهم وسمحوا بارواحهم فوقفوا بدون امام واتمّوا حجّهم مستسلمين للموت ، واخذ ابو طاهر خزانة الكعبة وما فيها من الذهب والفضّة وكسوة الكعبة وحُليّها وما نهبه من اموال الحجّاج فقسمها بين اصحابه واراد اخذ حجر المقام الذى فيه صورة قدم سيّدنا ابراهيم صلوات الله وسلامه على نبيّنا وعليه وعلى سايرِ النبيين اله الله تعالى ورُسُله فلم يظفر به لان سدنة الكعبة اخفوه وغيّبوه فى بعض شعاب مكة وتألّم لذلك فاستدعى بجعفر بن ابى علاج البنّاء وامره بقلع الحجر الاسود من مكانه فقلَعَه بعد العصر يوم الاثنين لاربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ذلك العام وصار يزْدَقّنه يقول قاتله الله تعالى ولعنه واخزاه

فلو كان هذا البيت لله ربّنا ... لصَبّ علينا النار من فوقنا صَبّا

لانّا حججنا حجّةً جاهليّةً ... محلّلة لم تبق شرقًا ولا غَرْبا

وانا تركنا بين زمزم والصّفَا ... جنابز لا تبغى سِوَى ربّها رَبّا

وقلع ذلك الكافر قبّة زمزم وباب الكعبة واقام بمكة احد عشر يومًا وقيل ستّة ايام ثم انصرف الى بلده هَجَرَ وحمل معه الحجر الاسود يريد ان يحوّل

للحجّ الى مسجد الضرار الذى سمّاه دار الهجرة وعلّقه فى الاسطوانة السابعة ممّا يلى صحن الجامع من الجانب الغربى من المسجد ويقى موضع الحجر الاسود من البيت الشريف خاليًا يضع الناس ايديهم فيه ويلثمونه تبرّكًا بمحلّه، وامر هذا الفاجر ان يخطب لعبيد الله المهدى اوّل الخلفاء العُبَيْديّين الفاطميّين وكان اول ظهوره فبلغ عبيدَ الله المذكور ذلك فكتب اليه ان اعجب العجب ارسالك يكتبك الينا مُهَنِّئًا بما ارتكبتَ فى بلد الله الامين من انتهاكك حُرمة بيت الله الحرام الذى لم يزل محترمًا فى الجاهلية والاسلام وسفكتَ فيه دماء المسلمين وفتكت بالحُجّاج والمعتمرين ثم تعدّيت وتجرّأتَ على بيت الله تعالى وقلعتَ الحجر الاسود الذى هو يمين الله فى الارض يصافح بها عباده وحملتَهُ الى ارضك ورجوتَ ان اشكرك على ذلك فلعنك الله ثم لعنك الله والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وقدّم فى يومه ما ينجو به فى غده، فلمّا وصل كتاب عبيد الله الى ابى طاهر القرمطى وعلم ما فيه انحرف عن طاعته واستمرّ الحجر عندهم اكثر من عشرين سنة يستجلبون به الناس اليهم طمعًا ان يتحوّل الحجّ الى بلدهم ويأبى الله ذلك والاسلام، وشريعة محمّد عليه افضل الصلوة والسلام، وهذه من اعظم مَصَايب الاسلام، واشدّهن فى الدين من اولئك الفجرة اللئام، ذابت لها اكباد العباد، وعمّت فتنتها فى الحاضر والباد، الى ان دمّر الله تعالى تلك الطايفة الفاجرة، ومزّقت كلّ ممزق بيد الله القاهرة، وابتلى ابو طاهر السنجسى هذا بالآكلة، فصار يتناثر لحمُهُ بالدُّود، ومات اشقى ميتة الى دار الخُلُود، وتعذّب بأنواع البلاء فى الدُّنيا، ولعذابُ الآخرة اشدّ وأبقى،

ولمّا أيسَت القرامطة عن تحويل الحُجّاج حجّهم الى هَجَرَ ردّوا الحجر الاسود

الى محلّه وورد سُنْبر بن الحسن القرمطى الى مكّة فى يوم النحر يوم الثلثاء عاشر ذى الحجّة الحرام سنة ٣٣٩ ومعه الحجر الاسود فلمّا صار بفناء الكعبة حضر معه امير مكة يومئذ وهو ظنّا ابو جعفر محمد بن الحسن ابن عبد العزيز العبّاسى فاظهر سفطًا اخرج منه الحجر الاسود وعليه ضبابٌ من قصّة فى طوله وعرضه تضبط شُقُوقًا قد حدثت فيه بعد قلعه واحضر معه جصًّا يشدّه به فوضع حسن بن المرزوق البنّاء الحجر فى مكانه الذى قلع منه وقيل بل وضعه سنبر بيده وقال اخذناه بقدرة الله تعالى واعدناه بمشيّته وقد اخذناه بامر وردّدناه بامر ونظر الناس الى الحجر فقبّلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى، وحضر ذلك محمد بن نافع الخزاعى ونظر الى الحجر الاسود وتامّله فاذا السواد فى راسه دون سايره وسايره ابيض، وحضر معهم ممّن حجّ تلك السنة محمد بن عبد الملك بن صفوان الاندلسى وشهد ردّ الحجر الى مكانه، ولمّا أُعيد الحجر الاسود الى مكة حُمِلَ على قُعُود هزيل فسَمِنَ وكان لمّا مضوا به مات تحته اربعون جملاً وكانت مدّة استتاره عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة الا اربعة ايام وكان المنصور بن القايم بن المهدى العبيدى راسل احمد ابن ابى سعيد القرمطى اخا ابى طاهر بخمسين الف دينار فى الحجر الاسود ليردّه فلم يفعل وبذل حكم التركىّ مدبّر الخلافة خمسين الف دينار للقرامطة على ردّ الحجر الاسود فأبَوا وقالوا اخذناه بامر ولا نردّه الاّ بامر الى ان اراد الله تعالى ردّه على الوجه الذى ذكرناه، وفى التواريخ صُوَرٌ أُخَرُ لهذه القصّة رايناها متناقضة وهذا اصحّ ما روى فيها فاعتمدنا عليه فعَضّ عليه بالنواجذ، ثمّ ان الحجبة خافوا على الحجر الاسود من استطالة يد خائنٍ اليه لعُظْم استحكام بنائه فقلعوه وجعلوه

فى البيت الشريف حفظًا له وصونًا عمّن اراده بسوء ثم امروا صايغَيْن فصنعا له طوقًا من فضّة وزنه ثلاثة الاف وسبعة وثلاثون درهمًا فطوّقوا به الحجر وشدّوا عليه به وأحكموا بناءه فى محلّه كما كان ذلك قديمًا وكما هو الآن ايضًا كذلك ٭ وكان قلع الحجر الاسود فى ايام المقتدر ثم وقع بينه وبين مونس حربٌ فتوغّل فى المعركة فضربه واحد من البربر من خلفه فسقط الى الارض فقال لضاربه ويحك انا الخليفة فقال له انت المطلوب وذبحه بالسيف ورفع راسه على الرمح وسلب ما عليه وبقى مكشوف العورة حتى سُتر بالحشيش ثم حُفِرَ له مكان ودُفن به وعُفِىَ اثرُهُ فسبحان المعزّ المذلّ السميع البصير ٭ له الملك وحده لا شريك له وهو على كلّ شىء قدير ٭ وكانت مدّة خلافة المقتدر اولاً وثانيًا وثالثًا خمسًا وعشرين سنة الا اياماً وقُتل لثمان بقين من شوّال سنة ٣٢٠ ☆

وولى اخوه مكانه ابو منصور محمد بن المعتضد ولقّب **القاهر بالله** وقُهِرَ القاهر المذكور وسُمِلَ عينَيْه وجاءوا بابى العبّاس محمد بن المقتدر بالله بن المعتضد ولقّبوه **الراضى بالله** وبايعوه فى سنة ٣٢٢ وصار خليفة الى ان مات فى سنة ٣٢٩ وبويع لاخيه ابى اسحق ابراهيم بن المقتدر بعده ولُقّب **المتقى بالله** وقُبِضَ عليه توزون التركىّ وسَمَلَ عينَيْه فى صفر سنة ٣٣٣ وبويع بعده لابن عمّه ابى القاسم عبد الله بن المكتفى بالله بن المعتضد ولُقّب **المستكفى بالله** واستمرّ فى خلافته سنة واحدة وأمسكه من امراءه معزّ الدولة ابن بويه فسمل عينيه وضمّه الى المتّقى بالله والقاهر بالله وصاروا ثلاثة اتاقى العمّا وولى للخلافة ابو القاسم الفضل بن المقتدر ولقّب **المطيع لله** وبويع له بالخلافة فى سنة ٣٣٤ وكان ردّ الحجر الاسود من بلاد هجر الى مكانه من البيت الشريف فى

ايام المطيع لله هذا وتمّ امرهُ على ضعف الخلافة ووهْنهما واستيلاء بنى بويه على الملك وطالت ايامه الى ان خلع نفسه رحمه الله وبويع لولده ابى بكر عبد الكريم فى سنة ٣٦٣ ولقب الطايع لله وكان مغلوبًا عليه من قبل امرآئه وما كان له الا العظمة ظاهرة لا غير بحيث لمّا ورد فى سنة ٣٦٩ رسول العزيز بالله بن المعزّ العُبَيْدى صاحب مصر الى بغداد سأل عضد الدولة ابن بويه وهو يومئذ ملقّب بالسلطنة من الطايع وبيده امر المملكة ان يزيد فى ألقابه ويقال له تاج المِلّة ويجدّد عليه الخلع ويلبسه التاج فاجابه الى ذلك فجلس الطايع على سرير عالٍ واوقف حوله مائة سيف مسلول وبين يَدَيْه مصاحف عثمان رضه وعلى كتفه بُردة النبىّ صلعم وبيده قضيب النبىّ صلعم وهو مقلد بسَيْف النبىّ صلعم وكان ذلك جميعه ممّا يتوارثه الخلفاء ويجعلونه لمواكبهم العامّة واحتجب بستارة عالية حتى لا يقع عليه نظر الجند قبل رفع الستارة وحضر الجند من الاتراك والديلم ووقفوا ارباب المراتب صفّيْن ثم اذن لعضد الدولة فدخل ثم رُفعت الستارة وقبّل الارض وادخل رسول العزيز صاحب مصر فارتاع واهاله ما راى وقال لعضد الدولة اهذا هو الله تعالى فقال له هذا خليفة الله فى ارضه ثم استمرّ يمشى ويقبّل الارض سبع مرّات فالتفت الطايع الى خادمه المقرب عنده واسمه خالص وقال له استدنه فقرّبه الى رجل السرير وقبّل رجله فثنى الطايع يمينه على راس عضد الدولة وامره ان يجلس على كرسى وُضِعَ له قريبًا من السرير فاستعفى عضد الدولة من ذلك فاقسم عليه ليجلس فقبّل الكرسى ثم جلس عليه فلمّا استقرّ جالسًا قال له الطايع قد فوّضت اليك ما وكل الله تعالى الىّ من امور الرعيّة فى شرق الارض وغربها فقال يُعينني الله تعالى على طاعة

امير المومنين وقبّل الارض فامر ان يغاص عليه سبع خلع فافيضت عليه وهو يقبّل الارض فى كلّ واحدة وانصرف وانصرف النـاس خلفه وقـد اهالهم ما رأوه واستعظموا ما شاهدوه وما كانت هذه العظمة الا صورة صناعية وكلفة اصطناعية حقيقتها واهية وقوّتها واهنة فان السلطنة لمّا آلت الى ابى نصر بن بويه ركب الطايع اليه وخلع عليه سبع خلع وطوّقه بطوق مجوهر وسوّره بسوارين ولقّبه بهآء الدولة وضيآء الملّة فى سنة ٣٧٩ ثمّ فى سنة ٣٨١ جاء بهـاء الدولة الى الطايع وقبّل الارض بين يديه وجلس على الكرسى وامر خدامه من الديلم فجذبوا الطايع من سريره ولفّوه فى كسآء وامره بهاء الدولة ان يخلع نفسه ففعل وانى بابى العبّاس احمد بن اسحاق بن المقتدر ولقّبه القادر بالله وبويع له بالخلافة لعشر مضين من شهر رمضان فى ذلك العام وكان على غاية من العبادة والديانة والفضل وصنّف كتاباً فى الردّ على القايلين بخلق القران وامر ان يُقرا فى كل جُمعة فى حلق اصحاب الحديث بحضرة النـاس وعَـدّه ابن الصلاح فى علمـاء الشافعية وذكره فى طبقاته وطالت مدّة خلافته حتى ناهزت على احدى واربعين سنة وثلاثة اشهر وتـوفى الى رحمـة الله تعـالى فى سنة ٤٢٢ وولى بعده بعهد منه ولده ابو جعفر عبد الله بـن القادر بالله ولقّب القايم بامر الله وكان خيّرًا دينًا باهر الفضل الا انه مغلوب بيد امرآته وطالت مدّته مع ذلك وكانت خلافتـه خـمـس واربعين سنة ووفاته فى شعبـان سنة ٤٦٧ وتولّى بعده بعهد منه حفيده ابو القاسم عبد الله بن محمد بن القايم بامر الله ولقّب المقتدى بالله بويع له بالخلافة يوم وفاة جدّه بحضرة الامام الكبير والولىّ الشهير مولانا ابى اسحاق الشيرازى احد اركان أئمّة الشافعىّ رضه وكان دينًا خيّرًا من

نجباء خلفاء بنى العبّاس وصالحيهم ومن جملة صلاحه وبركته ان السلطان ملكشاه من آل سُبُكْتكين قصد ان يتحكّم عليه ويظهر الجَنَف والحَيْف على الخليفة المذكور فارسل اليه وهو يقول له لا بُدّ ان تتنزك لى بغداد وتذهب الى اىّ بلد شئتَ فارسل الخليفة اليه يتلطّف به فى ذلك فأبَى الا شدّةً وغلظًا فقال لرسوله اسأله المُهْلَةَ لى ولو شهرًا فأبَى وقال ولا ساعةً فارسل الى وزيره فاستمهله عشرة ايام فامهله فصار الخليفة يصوم بالنهار ويقوم بالليل ويتضرّع الى الله تعالى ويضع خدّه على التراب ويناجى ربّ الارباب ويدعو على ملكشاه فنفذ دُعآءه وهو مظلوم، نفوذ السهم المسموم، فى كبد الظلوم، واستجاب الله دُعآءه، وتقبّل ضَراعته، فهلك السلطان ملكشاه قبل مُضىّ عشرة أيّام، وكفاه الله تعالى شرّه وما ربّك بظلّام، وعُدّت هذه كرامة للخليفة المقتدى، وهذه عُقْبَى كلّ ظالم معتدى، فرحم الله من قال

وكم لله من لُطْفٍ خفىّ ... يدِقّ خفاه عن فهم الذكىّ
وكم فرجٍ اتى من بعد عُسْرٍ ... وفَرّج كربة القلب الشجىّ
وكم همٍّ تسآء به صباحًا ... فتاتيك المسرّة بالعشىّ
اذا ضاقت بك الاحوال يومًا ... فثِقْ بالواحد الفرد العلىّ
تَمَسّكْ بالنبىّ فكلّ همٍّ ... يزول اذا تَمسّك بالنبىّ

وكذلك من قال

لا تشتغل بهموم القلب مُكْتَئِبًا ... ولا تبيتنّ الا خالى البال
ما بين غُمْضة عينٍ وانتباهتها ... يغيّر الدهر من حال الى حال

وكانت وفاة الخليفة المقتدى بالله فى محرم سنة ٤٨٧ وتولّى بعده ابنه ابو العبّاس احمد ولقّب المستظهر بالله بويع له بالخلافة يوم مات ابوه

وكانت أُمّه أُمّ ولد تركية اسمها الحلون وكان كريم الاخلاق حسن الخطّ لا يقاومه احدٌ فى كتابته حافظًا للقران عالمًا فاضلاً وكان قد غلب عليه ملوك آل سَلْجوق وكانت مدّة خلافته اربعًا وعشرين سنة وثلاثة اشهر وتوفى يوم الاربعاء لستّ بقين من شهر ربيع الاخر سنة ٥١٢ وولى بعده ولده ابو منصور الفضل بن المستظهر ولقّب المسترشد بالله وبويع له بالخلافة يوم مات والده وأُمّه أُمّ ولد تسمّى لُبابة وكان شجاعًا ديّنًا مشغولاً بالعبادة حفظ القران والحديث ونظم الشعر ومن شعره

انا الأَشْقَى الموعودُ بى فى المَلاحِمِ ومن يملك الدنيا بغير مُزاحِمِ

وكان هذا التخيّل من خيالاته الفاسدة فانه ما ملك من الدنيا ولا فناة داره وخرج الى قتال مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى فلم يقاتله معه احدٌ فقاتله وحده الى ان قُتل فى ذى القعدة سنة ٥٢٩ رحمه الله وتولّى بعده ابنه ابو جعفر منصور بن المسترشد بالله ولقب الراشد بالله وبويع له بالخلافة يوم قتل ابوه رحمه الله ولم تطُل مدّته بل قبض عليه السلطان مسعود السلجوقى وخلعه من الخلافة فى يوم الاثنين لاثنى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة الحرام سنة ٥٣٠ وحبسه وقتله فى حبسه وولى عمّه ابا عبد الله محمد بن المستظهر بالله ولقّبه المقتفى بالله وبويع له يوم خلع ابن اخيه وكان عالمًا فاضلاً حسن السيرة دمث الاخلاق شجاعًا توفى يوم الاحد لليلتَيْن خلتا من شهر ربيع الاول سنة ٥٥٥ وتولّى بعده ولده ابو المظفّر يوسف بن المقتفى ولقّب المستنجد بالله وبويع له يوم وفاة ابيه وأُمّه أُمّ ولد حبشيّة اسمها طاوس ويحكى انه قبل ان يصير خليفة راى فى منامه ان ملكًا نزل من السماء فكتب فى كفّه خمس خاءات فلمّا اصبح سال بعض المعبّرين عن منامه فقال له

انكى تلى الخلافة فى سنة ٥٥٥ فكان كذلك، توفى الى رحمة الله تعالى فى يوم السبت لليلتين خلتا من شهر ربيع الثانى سنة ٥٦٦ وتولّى بعده ابنه ابو محمد الحسن بن المستنجد بالله ولقّب المستضى بالله وبويع له يوم وفاة والده وكان حسن السيرة كريم النفس اسقط المكوس فى مملكه وكثر ثناء الخلق عليه وتوفى فى مستهل ذى القعدة سنة ٥٧٥ وتولّى بعده ابنه ابو العبّاس احمد ولقّب الناصر لدين الله وبويع له بالخلافة ثانى ذى القعدة وهو اليوم الثانى من وفاة والده،

وفى ايّامه كان ظهور السلطان صلاح الدين بن ايّوب واستخلاصه بيت المقدس من ايدى نصارى الافرنج واستيلاءه على مصر وازالة دولة الفاطميين عنها وخطب لهذا الناصر العبّاسى على منابر مصر ووقع بينه وبين السلطان صلاح الدين بن ايوب منافرة بسبب تلقّبه بالناصر لدين الله فان صلاح الدين تلقّب به، والفاطميون ويقال لهم العبيديون اربعة عشر خليفة انّهم عبيد الله المهدى واختلف المؤرّخون فى نسبهم وهم منتسبون الى فاطمة الزهرآء رضوان الله عليها وانكر ذلك كثير من المؤرّخين وطعنوا فيه بانهم من اولاد الحسين بن محمد بن احمد بن القدّاح وقالوا كان القداح المذكور مجوسيًّا، وثانيهم المنصور وثالثهم القايم ورابعهم المعزّ وهو الذى انتقل من بلاد المغرب الى مصر وملكها من الاخشيديّين وبنى القاهرة المعزّية واستمرّ هو ومن بعده من العبيديين بمصر الى ان كان اخرهم العاضد وهو الرابع عشر منهم توفى فى يوم عاشورآء سنة ٥٦٧ وذلك بعد استيلاء صلاح الدين بن ايوب عليه وعلى مملكته وخطب على منابر مصر للناصر لدين الله وانقرضت دولة العبيديين وكانوا ارفاضًا سبّابين ومنهم ملاحدة كالحاكم

بامر الله وحُكى عنه تفويات عجيبة واكثر المؤرّخين على نفى شرفهم والله اعلم بحقيقة ذلك ٠

وطالت مدّة خلافة الناصر فأحيا رسوم الخلافة وامتلأت القلوب من هيبته وكان ذا فكرة صايبة وكانت ايامه من غرر الزمان وكان له احسان الى اهل الحرمَيْن الشريفين وكانت الكعبة الشريفة تُكسَى الديباج الابيض فى زمن المامون الى آخر ايام الناصر فكساها الديباج الاسود واستمرّت الى زماننا هذا تكسى الديباج الاسود ٠ ثم كساه الجام ثياب اكفانه ٠ وعزله عن سرير مُلكه وتخت سلطانه ٠ واودعه بطون المقابر ٠ وما له من قوّة ولا ناصر ٠ وكانت وفاته فى سلخ شهر رمضان سنة ٦٢٢ ٠

وتولّى مكانه بعد موته ولده ابو نصر محمد بن الناصر ولقّب الظاهر بامر الله وبويع له بالخلافة يوم مات والده بعهد منه اليه فاظهر العدل والاحسان وابطل المكوس وورث ذوى الارحام وكان العُمّال يكيلون للديوان بكيل زايد على ما يكيلون به للناس فابطل الظاهر ذلك وكتب الى وزيره ويل للمطفّفين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون الا يظنّ اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لربّ العالمين فقال له الوزير ان تفاوُتَ الكيل ينوف على ثلاثين الف دينار فقال ابطلْه ولو انه ثلاثماية الف دينار ٠ وفرّق ليلة عيد النحر على الفقراءماية الف دينار فلامه الوزير على ذلك فقال اتركنى افعلُ الخير فانى لا ادرى كم اعيش فلم يلبث ان وفّاه الله بالكيل الأوفى ٠ واثابه على عمله الصالح ووفّى ٠ فعاش حميدًا ٠ ومضى سعيدًا ٠ وتوفى فى رجب سنة ٦٢٣ ٠ وتولّى بعده ولده ابو جعفر منصور بن الظاهر ولقّب المستنصر بالله وبويع له بالخلافة يوم وفاة والده فنشر العدل

وبذل الانصاف وقرب اهل العلم والدين وبنى المساجد والربط والمدارس وهو الذى بنى المدرسة المستنصرية ببغداد لله لم يُبْنَ مثلها فى مدائن الاسلام ولم يوجد فى المدارس اكثر كُتُباً منها ولا اكثر اوقافاً عليها وكان لهذه المدرسة اربعة مدرّسين يدرّسون فيها على المذاهب الاربعة ورتب فيها الخبز واللحم والحلوى والفاكهة وكسوة الشتاء والصيف وجعل فيها ثلاثين يتيماً ووقف على ذلك ضياعاً وقُرًى كثيرة سَرَدَها الذهبىّ وغيره، فرحم الله اهل الخير واهل الصلاح والاحسان، ورفع الله درجاتهم فى اعلا الجنان، وألهم فعل الخير سلاطين الزمان، ووفقهم لنشر العدل بالقسط والميزان، وكانت مدارس بغداد يضرب بها المثل فى ارتفاع العماد، واتقان المهاد، وطيب الماء، ولطف الهواء، ورفاهية الطلاب، وسعة الطعام والشراب، وغير ذلك من الاسباب، ولقد حُكى ان اول مدرسة بُنِيَتْ فى الدنيا مدرسة نِظَام المُلْك فى بغداد فبلغ علماء ما وراء النهر هذا الخبر فاتخذوا للعلم مأتماً وحزنوا على سُقوط حُرمة العلم فسُئلوا عن ذلك فقالوا ان العلم مَلَكَةٌ شريفة فاضلة لا يتطلّبه الا النفوس الشريفة الفاضلة بجاذب الشرف الذاتىّ والمناسبة الطبيعية ولمّا جُعل عليه اجرة تتطلّبه النفوس الرذلة وتجعله مَكْسَباً لحطام الدنيا وتتزاحم عليه لا لتحصيل شرف العلم بل لتحصيل المناصب الدُّنْيَوِيّة السفلة الفانية فيرذل العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه الا ترى الى علم الطبّ فانه مع كونه علماً شريفاً لمّا تعاطته اراذل اليهود رذل برذالتهم ولم تشرف اراذل اليهود بشرف علم الطبّ، وهذا حال اكثر طلبة العلم فى هذا الزمان الفاسد وهذا شانُ طُلّاب هذه العلوم المتداولة الآن فى هذا السوق الخاسر الكاسد فانك ترى اكثرهم مع اداءبه فى الطلب، واكبابه على فنون العلم

والادب، يزداد كلّ وقت عُجْبًا وكِبْرًا، ويتعاظم على كلّ احد تيهًا وفخرًا، ولم ينتق من أوضار الاخلاق الرذيلة، ولو اكتسب مَهْمَا اكتسب من الفضيلة، وقلّما يتحلّى احدهم بحُلَى الاخلاق الحسنة الجميلة، والمزايا الفاضلة الكاملة الجليلة، وما ثمرة كسب العلوم غير التخلّق بحسن الاخلاق، والعمل بمقتضى طيب الاصول والاعراق، والله تعالى يُبَصّرنا بعيوبنا، ويستر علينا معايب ذنوبنا، وينبّر بصر بصايرنا ويزيل عوار قلوبنا، ويُرينا الحقّ حقًّا ويرزقنا اتّباعه، ويُرينا الباطل باطلاً ويوفقنا لاجتنابه،

قُلْتُ وحيث انجرّ الكلام الى ذكر نِظَام المُلْك فاذكر لك حكاية لطيفة نقلها صاحب كتاب وصل الحبيب ونديم اللبيب قال ذكروا ان نظام الملك لمّا استوزر بالعراق للسلطان ابى الفتح السلجوقى قام بالدولة احسن قيام فشيّد اركانها، واسّس بُنْيانها، ووالى الاولياء، واستمال الاعداء، وعمّ احسانه العدوّ والصديق والقريب والبعيد وكان اقبل اقبالاً عظيمًا على العلماء والصلحاء والفقهاء وبنى المدارس العظيمة والخانقاهات العالية واجرى الخيرات الكثيرة والكساوى الجليلة الفاخرة لطبقات طلبة العلم والمشايخ الصوفية وغيرهم ممّن يتوسّم فيه الدين والصلاح وعمّ بذلك سايرَ الاقطار من بلاد العراقيْن الى الحرميْن الشريفين بحيث كان يخرج من خاصّة الخالصة السلطانية والخزاين الديوانية من هذه الوجوه ما ينوف عن ستّمائة الف مثقال ذهب غير الذى ينفقه من خاصّة امواله ومحصّلات غلاله وما يدخل عليه من الهوآيات وغيرها ولعلّه كان يقرب من القدر الذى يُخْرجه من اموال السلطنة فطار صيتُهُ فى الافاق وكَثُرَ حُسّادُهُ ولا يَخْلُو السُّعدآء من الحُسّاد فى كلّ زمان، كما

هو مشاهد بالعيان فى كلّ اوان ، وما وجدوا للطّعن على نظام الملك طريقًا غير احجافه فى الاخراج من الاموال السلطانية فى هذه الوجوه فوشوا به الى السلطان ابى الفتح من طُرق شتّى وكرروا فى سمعه ان نظام الملك اخرب بيت المال وان هذه المصاريف الزايدة لله يخرجها فى هذه الوجوه يمكن ان تُصْرَف فى جَمْع جيش كثيف يركز رايته فى سور قسطنطينية وكانت يومئذ مملكة النصارى وهى الآن بحمد الله دار مُلْك مَلِك الاسلام ، عمّرها الله تعالى بعدلة سلطان سلاطين الانام ، وحرسها بالنصر والتّأييد الى يوم القيام ، وانه يمكن ان يُوخَذ بذلك لجيش كثير من الممالك والاقاليم وتتّسع بها المملكة ويكثر الخراج والاموال ، فلمّا تكرّر ذلك على سمع السلطان اثّر كلامهم فى قلبه واعتقد نصحهم وكلّ كلام تكرّر على السمع قَبِلَهُ القلب وانطبع فى الطبع ولو كان واهيًا واهنًا فى نفس الامر فطلب نظام الملك وقال له يا اب وكان يخاطبه بالاب تعظيمًا له لكبر سنّه وعقله بلغنى انك تخرج من بيت المال فى كلّ سنة ستّمايةالف دينار الى من لا ينفعنا ولا يُغْنى عنّا شيئًا فبكى نظام الملك وقال يا بنى انا شيخ عجمى لو نُودى علىّ فى السوق ما سويت خمسة دنانير وانت شابٌّ تركىّ لو نُودى عليك عساك تساوى ثلاثين دينارًا وقد اختارنا الله تعالى وفوّض الينا امور عباده وبلاده فلم نقابله بالشكر ولا عرفنا قدر نعمة الله تعالى فاستمريت انا فى كتابتى وضبطى وانت منهمكٌ فى لذّاتك ولَهْوِك واكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصينا دون طاعتنا وشُكْرنا وجيوشك الذين اعددتهم للنوائب اذا احتشدوا يومًا كافحوا عنك بسَيْف طوله ذراعان وسهم لا يعدو مَرْماه وهم مع ذلك مُنْهَمكون فى المعاصى والخمور والملاهى ثم أُخْرى بنزول القهر عن

نزول الفتح والنصر فاتخذت لك جيشًا كثيفًا وعسكرًا منيفًا ويسمّى جيش الليل وعسكر السحر اذا نامت جيوشك ليلاً قامت هذه الجيوش على اقدامهم صفوفًا بين يدى ربّهم وارسلوا دموعهم، واطلقوا بالدعاء السنتهم ومدّوا الى الله اكفّهم، فرموا سهامًا تخترق السموات والارضين وسلّوا سيوفًا تعمل فى كل حين، طوالاً تبلغ الى الصين، فاذا وجيوشك فى خفارتهم تعيشون، وببركاتهم تُمطرون، وبدعآئهم تنصرون، فبكى السلطان ابو الفتح بكاء شديدًا وقال شاباش يا ابن استكثر من هذا الجيش فانه هو الذى لا بُدّ لنا منه، ولمّا كان كلٌّ منهما له قابلية الخير معجونًا به ما اثّر عند ملكه كلام الحسّاد مع تكرّره الا تاثيرًا ضعيفًا وزال فى الحال وعاد الى حُبّ الخير الذى جُبِلَ عليه واستغفر الله تعالى ممّا فرط من تقصيره فرحم الله تعالى تلك الارواح الطاهرة ومتّعنا بالنظر الى وجهه الكريم فى الدار الآخرة فلقد زالوا وما زالت اخبارهم تُروَى، واحاديثهم الحسنة تُنشَر على ألسنة الرُّواة ولا تُطْوَى،

عُدْنا الى ما كُنّا فيه، ومن جملة خدام المستنصر بالله الامير شرف الدين اقبال الشرابى المستنصرى العبّاسى بَنَى بمكة مدرسة على يمين الداخل الى المسجد الحرام من باب السلام ووقف فيها كُتُبًا كثيرة فى سنة ٦٣٩ ذهبت شَذَرَ مَذَرَ والمدرسة باقية الى الآن وقد صارت رباطًا وفيه محلّ الدرس وبه كُتُبٌ وقفها بعض فقهاء اهل الخير ممن ادركناه رحمه الله تعالى، وبلصق الكعبة الشريفة فى وسط مقام سيّدنا جبريل عم حجر من الرخام الازرق الصافى منقور فيه بالمثقب ما صورته بسم الله الرحمن الرحيم امر بعمارة هذا المطاف الشريف سيّدنا ومولانا الامام الاعظم المفترض الطاعة على سايير الامم ابو جعفر المنصور المستنصر بالله

امير المومنين بلّغه الله آماله، وزيّن بالصالحات اعماله، وذلك فى شهور سنة ٦٣١ وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله، انتهى، وهذا اللوح باق الى زمان تاليف هذه الرسالة، وكانت وفاة المستنصر بالله لعشر بقين من جمادى الاخرة سنة ٦٤٠ وكتم موته وخُطِبَ له بعد موته الى ان جاء الامير اقبال الشرابى الى ولده ابى احمد بن المستنصر وسلم عليه بالخلافة لعشر مضين من رجب سنة ٦٤٠ فبويع له ذلك اليوم ولقّب المستعصم بالله وهو آخر الخلفاء العبّاسيين فى بغداد وبزواله زالت دولتهم من الدنيا كما سنشرحه ان شاء الله تعالى، وحجّت والدة المستعصم بالله فى سنة ٦٤١ وهى امّ ولد حبشيّة اسمها هاجر وكان فى خدمتها اقبال الشرابى الدوادار ومعه ستة الاف خلعة وتصدّق بنحو ستّين الف دينار وعُدّت جمال ركب بغداد تلك السنة فكانت ماية الف وعشرين الف جمل ثم عادت الى بغداد رحمها الله، ولمّا جرَت عادة الله تعالى بانقراض الدول واختصاص العزّة والبقاء بالله عزّ وجلّ آلت دولة آل العبّاس الى الانقراض والزوال، وغيّرتهم الغِيَر ونابتهم النوائب وحالت بهم الاحوال، ودالت دولة غيرهم ولكلّ زمان دولة ورجال،

ما بين غمضة عين وانتباهتها يغيّر الدهر من حال الى حال

ولكلّ شىء سبب من الاسباب، وعلّة يدور عليها التقلّب والانقلاب، وكان سبب ضعف خلفاء بنى العبّاس استيلاء مماليكهم وامرآهم عليهم، وتفويض جميع امور المملكة اليهم، وتلقيبهم بألقاب السلطان، وشرط ادلالهم على مواليهم، وامتهانهم غاية الامتهان، الى ان صاروا اسماء بلا مسميات، وصُوَرًا هيولانيّة يتصرّف فيها بالمحو والاثبات، وصاروا امرآهم يغشونهم ويغشّونهم، ويصل ارباب الغرض الى اغراضهم الفاسدة لما

يرشونهم، فاوّل سبب زوال الملك ان المستنصر بالله كان له ولدان احدهما يعرف بالخفاجي كان شديد البأس، شجاعاً فاتكاً صعب المراس، والثاني المستعصم بالله وكان هيّناً ليّناً ضعيف الراي، فاختاره الامير اقبال الشرابي على اخيه الخفاجي ليستبدّ بالامور ويستقلّ باحوال الملك ولا يناله مكروه من المستعصم ولا يخشاه كما خشي من اخيه الخفاجي فلمّا توفي المستنصر اخفى الامير اقبال موته نحو عشرين يوماً حتى دبّر لولاية المستعصم وبويع له بالخلافة وفرّ اخوه الى العُربان وتلاشى امره، ثم اعظم سبب الزوال ان مؤيّد الدين محمد بن محمد بن عبد الملك العلقمي صار وزيراً للمستعصم وكان رافضيّاً سبّابًا مستولياً على المستعصم عَدُوًّا له ولاهل السُّنّة يداريهم في الظاهر ويناقضهم في الباطن وكان تدبيره على ازالة الخلافة من بني العبّاس واعادتها الى العَلَويّين وطَمْس آثار اهل السُّنّة واطفاء انوارهم وتقوية اهل البدعة وابقاء دبارهم، فصار يكاتب هولاكو خان ويطمّعه في ملك بغداد ويطالعه باخبار بغداد ويخبره عن صورة اخذها وضعف الخليفة واختلال العسكر عنه وصار يُحَسِّن للمستعصم توفير الخزينة وعدم الصرف على العسكر والاذن لهم بالتفرّق والذهاب اين شاءوا ويقطع ارزاقهم ويشتّت شملهم بحيث انه اذن مرّة لعشرين الف مقاتل ان يذهبوا اين ارادوا ووفّر علوفاتهم في الخزينة واظهر للمستعصم انه وفّر من علوفاتهم خزاين واموال عظيمة توفّرت في بيت المال فاعجب المستعصم رايه وتوفيره وكان يُحِبُّ المال ويجمعه وما علم انه يجمعه لعَدُوّه، وقد سُئِلَتْ بنو أُمَيّة بعد ذهاب مُلكهم ما الذي كان سبباً قويًّا في زوال الملك عنكم فقالوا اقواها انّا اعتمدنا على المال، واستَهْوَنّا بالرجال، فوفّرنا المال، وقلّلنا الرجال، فأُخِذ

العدوّ مالنا، وتقوّى به علينا، وانّا ابعدنا الصديق اعتمادًا على صداقته، وقرّبنا العدوّ استجلابًا لمحبّته، فصار الصديق عدوًّا بالابعاد، ولم يَصِر العدوُّ صديقًا بالاستجلاب،

احذر عدوّك مرّة واحذر صديقك الف مرّة
فلربّما انقلب الصديق فكان أعلَمَ بالمَضَرّة،

وكان من قضاء الله وقدره ان هولاكو سلطان المغل وجغتاى من دشت قفجاق زحف على بلاد الاسلام وجاء بعسكر جرّار لا يعلم عدده الاّ الله تعالى وكان اقوى سلاطين الاسلام اذذاك السلطان علاء الدين خوارزمشاه وكان يملك من العراق الى اقصى بلاد المشرق وكان له قوّة وشوكة وعسكر وافر وجُند متكاثر فظهر هولاكو وقاتله خوارزمشاه مرارًا وهو ينكسر الى ان قُتل هو واولاده وجنوده واستباح بلاده هولاكو وأسَرَ اولاده وقتل جنوده واستباح كثيرًا من بلاد الاسلام، وقتل من فيها بالقتل العامّ، وصار بجول هولاكو فى الديار، وناره فى غاية الاشتعال والاستعار، والمستعصم ومن معه فى غفلة عنه لاخفاء ابن العلقمى عنه سايرَ الاخبار، الى ان وصل هولاكو خان الى بلاد العراق واستأصل من بها قتلاً وأسْرًا وتوجّه الى بغداد وارسل الى الخليفة يطلبه اليه فاستيقظ الخليفة من نوم الغرور وندم على غفلته حيث لا ينفعه الندم وجمع من قدر عليه وبرز الى قتاله وجمع من اهل بغداد وخاصّة عبيده وخدامه ما يقارب اربعين الف مقاتل لكنهم مُرْفهون بلين المهاد، ساكنون على شطّ بغداد، فى ظلّ نخيل، وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع احباب واصحاب، فما كابدوا حربًا، ولا دافعوا طعنًا ولا ضربًا، وعساكر المغل ينوفون على مايتى الف مقاتل، ما بين فارس وراجل، وسالسب

وباسل، وفاتك وقاتل، يَتِبون وثوب القِرَدة، ويتشكّلون باشكال المَرَدة، يقطعون المسافات الطويلة، في ساعات قليلة، ويخوضون الأوحال، ويتعلّقون بالجبال، ويصبرون على العطش والجوع، ويهجرون الغُمْض والهُجُوع، ولا يبالون بالبرد والحرّ، والسهل والوعر، والبرّ والبحر، طعامهم كفّ شعير، وشربهم من طرف البير، يكاد احدهم يتقوّت بطرف اذن فرسه يقطعها ويأكلها نيّا ويصبر على ذلك اياماً عديدة، او يكتفي هو وفرسه بحشيش الارض مدّة مديدة، فوقع المصافّ والتحم القتال، ووقع الطراد والنزال، وزحف الخميس الى الخميس، في يوم الخميس، عاشر المحرم الحرام سنة ٦٥٦ وثبت اهل بغداد مع تراقتهم على حدّ السيوف، وصبروا مصطبرين على طعم الحتوف، واعطوا الدارَ حقّها، واستمطروا غمايم السهام وابلها ووَدْقها، واستقبلوا بحرّ وجوههم صواعق الحرب وبرقها، ورزقوا في تلك المكابدة الفوز بالشهادة، وارتقوا في الدار الآخرة رُتب السعادة، وجادوا بانفسهم في سبيل الله واجادوا احسن اجادة، واستمرّوا كذلك من اقبال الفجر الى ادبار النهار، فعجزوا عن الاصطبار، وانكسروا اشدّ انكسار، وولوا الأدبار بالادبار، وانهزموا وما اغنى عنهم الفرار ولزم السطراد الى قتال أحدّ سلاحهم منه الفرار

مَضَوْا متسابقي الاعضاء فيه لأرؤسهم بأرجلهم عِثَار

يَرَوْنَ الموتَ قُدّاماً وخَلْفاً فيختارون والموت اضطرار

وغرق كثير منهم في دجلة، وقتل اكثرهم اشدّ قتلة، واعقبهم التتار، ووضعوا السيف فيهم والنار، وقتلوا من المسلمين في ثلاثة ايّام ما ينوف على ثلاثمائة الف وسبعين الف نفس، وسبوا النساء والاطفال، ونهبوا الخزائن والاموال، فاخذ هولاكو جميع النقود وامر باحراق الباقي ورموا

كُتُبَ مدارس بغداد فى بحر الفرات فكانت للترتها جسراً يمرّون عليها ركاباً ومشاة وتغيّر لون الماء بمداد الكتابة الى السواد وكانت هذه الفتنة من اعظم مصايب الاسلام، واُخذ المستعصم هو واولاده وجماعته واتوا به الى هولاكو اسيراً ذليلاً فقيراً حقيراً فسبحان العزّ المذلّ القادر القاهر، تعالى شانه الباهر، وعلا سلطانه على كلّ ذى سلطان قاهر، فاستبقى هولاكو الخليفة اياماً الى ان استصفى امواله وخزاينه، وذخايره ودفاينه، ثم رمى رقاب اولاده وذريته واتباعه ومتعلّقيه وامر ان يُوضَع الخليفة فى غرارة ويُرفَس بالارجل الى ان يموت ففُعِلَ به ذلك فاستشهد رحمه الله تعالى فى يوم الاربعاء لاربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٦٥٦ وانقطعت خلافة بنى العبّاس وهم سبعة وثلاثون خليفة اوّلهم السفّاح وآخرهم المستعصم، وبعده صار المسلمون بلا خليفة ولم يَنَل ابن العلقمى ما اراده من نقل الخلافة الى من اراد ولم يستفد غير سلامة اهل الحلّة من النهب والقتل بمساعدته لهم فان نجم الدين محمد بن الحسن بن طاوس الحلّى وسديد الدين يوسف بن المطهّر الحلّى ارسلا كتاباً الى هولاكو على يد ابن العلقمى وفيه كلامٌ يروونه عن امير المومنين علىّ بن ابى طالب رضه صورته اذا جاءت العصابة الله لا حلاق لها لتُخرِبَنّ يا امّ الظلمة ومسكن الجبابرة وامّ البلايا وَيْل لك يا بغداد ولدارك العامرة الله لها اجنحة كالطواويس تُماثين كما تُماثُ الملح فى الماء وياتى بنو قطورا مقدّمهم جَهْوَرِىُّ الصوت لهم وجوه كالمجانّ المطرّقة وخراطيم كخراطيم الفيلة لم يَصِلْ الى بلدة الّا فتحها ولا بُرَايَة الا نكسها، فلمّا وصل الكتاب الى هولاكو امر ان يترجم له فلمّا قراه امر لهم بسلم الامان وسلموا بسبب ذلك من القتل والنهب وجاء ابن العلقمى

باثمه واثر من ظلم بسببه وكان من اهل النار، وسيعلم الكفّار لمن عقبى الدار، قلتُ واما هذه اللمات فما عليها طلاوة كلام سيّدنا علىّ رضه ولا حلاوته واثار الوضع ظاهرة عليها وكانهم اختلعوه بعد وقوع العامّة، وعند حصول هذه الفتنة العامّة، والا لاشتهر ذلك قبل الوقوع، وتناقلته الرواة فى كلّ مجموع، والله اعلم بالسراير، وما تجنّه الاحشاء والضماير،

فصل كان ممّن نجا من سيوف هولاكو من بنى العبّاس ابو القاسم احمد وتلقّب المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضى بن المستنجد بن المقتفى بالله العبّاسى فوصل الى مصر وافدًا على سلطانها اذذاك وهو الملك الظاهر سيف الدين بيبرس البُنْدُقْدارى فى سنة ٥٥٩ فخرج السلطان بيبرس الى ملاقاته واكرمه واثبت نسبه فى موكب عظيم فيه قضاة الشرع الشريف واعانه الظاهر بجيش وتوجّه الى بغداد ووصل الى الفرات فى ثالث ذى القعدة سنة ٥٥٩ فقاتله قره بُغا نايب هولاكو على بغداد فقُتل المستنصر ومن معه ولم ينج منهم الا القليل ولم يتمّر له الامر، ثم وصل بعد ذلك الى مصر من بنى العبّاس ابو العبّاس احمد وتلقّب بالحاكم بامر الله بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر بن المقتدى العبّاسى فاكرمه الملك الظاهر واثبت نسبه قضاة الشرع بحضرته وبايعه بالخلافة واجرى عليه نفقة وسكن مصر وليس له من الامر شىء وانما اسمه للخليفة واولاده من بعده على هذا المنوال ليس لهم الا اسم الخلافة ويانون به الى السلطان الذى يريدون تولينه فيبايعه ويقول له ولينك السلطنة هكذا كانوا بالْقاب للخلفاء واحدًا بعد واحد فكانت سلاطين الاقاليم يتبرّكون بهم ويرسلون اليهم احيانًا يطلبون

منهم تفويض السلطنة باللسان فيكتبون له تقليداً ويعهدون اليه بالسلطنة عهداً ويولونه سلطنة لجهة الله هو فيها فيتبرّك بهذا التقليد ويتيمّن به ولا يخفى ان هولاء ليس لهم من الخلافة ولا الصورة كما كان للخلفاء العبّاسيين ببغداد المحجور عليهم من جهة امرآئهم صورة الخلافة فقط وهولاء ليس لهم ولا تلك الصورة ايضاً وانّما لهم الاسم المجرد عن المعنى من كلّ وجه ، ولمّن شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى رحمه الله عدّهم من جملة الخلفاء العبّاسيين وكتب تاريخاً للخلفاء ذكر هولاء من جملتهم وقام بشانهم واعتبارهم وآخر من ذكر منهم فى تاريخ الخلفاء المتوكّل على الله ابو العزّ عبد العزيز بن يعقوب وانه بويع له فى يوم الاثنين السادس والعشرين من المحرّم سنة ٨٨٣ بحضرة مولانا السلطان الاشرف قايتباى والقضاة والاعيان بالقلعة فى مصر ثم ركب من القلعة الى منزله وكان يوماً مشهوداً وبه ختم كتاب تاريخ الخلفاء ، ورايت فى تاريخ لطيف للحافظ السيوطى ايضاً سمّاه الورقات فى الوفيات ان فى سنة ٩٠٣ مات فى المحرم منها الخليفة المتوكّل على الله ابو العزّ العبّاسى المصرى رحمه الله قال وعهد لابنه يعقوب ولم يلقّبه فلقّبه الناس المستمسك بالله انتهى ، قلت واستمرّ يعقوب المستمسك بالله خليفة الى ان كبُرَ سنّه وكفّ بصره ودخلت ايام الدولة الشريفة العثمانية وافتتح السلطان الاعظم والخاقان الافخم الاشهم السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مصر القاهرة وقهرها ، وازال عنها مظالم الجراكسة وعمّرها ، وعاد مع الفتح والبُشرى ، الى دار السلطنة الكُبرى ، قسطنطينية العُظمى ، فتوفى الخليفة المذكور بمصر لعشر بقين من ربيع الثانى سنة ٩٢٧ وولى بعده ولده ابو عبد الله محمد بن يعقوب ولقّب المتوكّل على الله وكان السلطان

المرحوم سليم خان لما افتتح مصر اخذه سُرْكُنًا الى اسطنبول عوضًا عن والده يعقوب المستمسك بالله لكبر سنّه وذهاب بصره فلمّا توفى السلطان سليم رحمه الله عاد المتوكّل على الله هذا الى مصر وصار خليفة بها واستمرّ الى ان توفى الى رحمة الله لاثنتى عشرة ليلة مضت من شعبان سنة ٩٥٠ فى ايام المرحوم داود باشا الخادم صاحب مصر وموته انقطعت الخلافة العباسية الصورية بمصر ايضًا وكان المتوكّل هذا فاضلًا اديبًا له شعر منه قوله

لم يَبْقَ من مُحْسِن يُرْجَى ولا حَسَن ولا كريم اليه مشتكى الحَزَنِ
وانّما ساد قومٌ غير ذى حَسَبٍ ما كنتُ أوثِرُ ان يمتدّ بى زمنى

ضمّن فيه قول الطُّغرائى من لامية العجم

ما كنت اوثر ان يمتدّ بى زمنى حتّى ارى دولة الأوغاد والسُّفَلِ

وقد اجتمعتُ به واخذتُ عنه فى رحلتى الى مصر لطلب العلم الشريف فى سنة ٩٤٣ وكانت مصر انذاك مشحونة بالعلماء العظام، مملوءة بالفضلاء الفخام، ميمونة بيُمْن بركات المشايخ الكرام، كانّها عَرُوس، تتهادى بين اقمار وشموس،

ثم انقضت تلك السنون واهلها فكانّها وكانّهم أَحْلَامُ

الباب السادس

فى ذكر ما عمّرته ملوك الجراكسة،

وانّما ذكرتهم لان بعضهم او اكثرهم عمّر فى المسجد الحرام، وسبق لهم فيه من الترميم والنظام، لمّا صاروا من سلاطين الاسلام، اعلم ان الجراكسة جنس من الترك فى جنوب الارض لهم مدائن عامرة ولهم جبال ومزارع يرعون الغنم ويزرعون وهم تابعون لسلطان قاعدة ملك خوارزم وملوك